

كامل كيلاني

وسيرته الذاتية

إعداد

عبد الرحمن بدوي



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

كامل كيلاني

وسيرته الذاتية

. إعداد

عبد الرحمن محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

الإخراج الفني

فاتن رضا

إهداء

بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لمولد رائد
أدب الأطفال الأستاذ المرحوم «كامل
كيلانى»، حيث إن مولده كان فى العشرين
من أكتوبر سنة ١٨٩٧.

أهدى لروحه الزكية سيرته الذاتية لتعريف
الأجيال الذين لم يعاصروه، بشخصه وأدبه،
اعترافاً بفضله، لما قدمه من علم وعرفان

عبد الرحمن بدوي

أنفَعُ النَّاسَ وَحَسْبِي
أَنْفَعِي أَحْيَا الْأَنْفَعِ
أنفَعُ النَّاسَ وَمَسَالِي
غَيْرُ نَفْعِ النَّاسِ مَطْمَعِ

كامل كيلاني

تقديم

بقلم: رشاد كامل كيلاني

ليس من السهل أن نحدد متى بدأ أدب الأطفال يأخذ مكانه بين ألوان الأدب المختلفة، فالأنواع الأدبية كما هو الشأن في كل شيء يحيا - لا تولد كاملة. ولا تنشأ تامة، وإنما تتدرج في نشوئها وتطورها، حتى تعلن وجودها، وتأخذ مكانها اللائق بها، ومؤرخو أدب الأطفال لا يستطيعون إلا أن يضيفوا إليه ما وضع (عثمان جلال) من أزجال قصصية في كتابه (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ). وهي من الأدب المترجم، ولا يستطيعون كذلك إلا أن يذكروا أراجيز شوقي، تلك التي تتضمن حكايات وأساطير، أبطالها من عالم الحيوان.

كذلك مازال منا من يحفظ أو من سمع الأناشيد والأهازيج
التي كان يترنم بها في مكاتب التعليم ومدارسه، آباؤنا في
طفولتهم: مثل أنشودة العصفور الحبس، التي يقول فيها:

الحبس ليس مذهبى وليس فيه أرى
ولست أرضى قفصا وإن يكن من ذهب

ومثل أنشودة استقبال الطائر التي يقال فيها:

أيها الطائر أهلا بمحياك وسهلا
فقت كل الطير شكلا زانه ذاك الهديل

وهناك أيضا تلك الحكايات القصار التي ترددت زمنا طويلا
على ألسنة الأطفال من أهل الجيل الماضى أو الذى قبله.

وهل ننسى منها المثل الذى كان يبدأ بقوله:

يحكى أن غزالا عطش مرة.....

كل ذلك كان من بعض اللوامع التي مهدت لظهور رائدين
في أدب الطفل، أحدهما في النظم. والآخر في النثر، وإن
كانت له في الشعر مشاركة.

كلاهما كان في الصف الأول من الأدباء، ولكنهما في
وعى مبكر. أثر كل منهما لنفسه أن يرتاد هذا الميدان الجديد
في محاولات جادة، وفي خطط محكمة.

واليهما يرجع الفضل الأول في دعم أدب الأطفال وفي
توسيع آفاقه .

والشاعر الذى نذر الجانب الكبير من فنه لأدب الأطفال هو
محمد الهراوى، الذى افتن فى منظوماته شكلا وموضوعا .

فقد كان يختار من الأوزان الشعرية أيسرها حفظا وأخفها
على السمع، وكان لتمكنه وأصنائه يصطفى من مأنوس
الألفاظ ما يمتع الذوق، أما الموضوعات فقد كانت مستمدة من
صميم حياة الطفل وملايساته منطوية على توجيهات حكيمة
وفى المعاصرين لنا من لم ينسوا قوله :

أنا فى الصبح تلميذ وبعد الظهر نجار
فلى قلم ومسطرة وأزميل ومنشار

أما رائد التأليف للأطفال فى ميدان النثر، فهو : «كامل كيلانى» .
ولقد كان اقتحامه هذا الميدان مغامرة، فإنه كان يشق
طريقا جديدا وكان يمشى على أرض صلبة، وله عند كل
خطوة عقبة .

ولعل حماسه لروائع الأدب العربى هى التى أوحى إليه أن
يقتحم ذلك الميدان، فإنه لما قدم إلى قراء العربية أدب

«المصرى» و «ابن الرومى» «وابن زيدون» نصوصا ودراسات -
هاله ألا يجد هذا الأدب مساعا إلا عند الخاصة من المتأدبين .
فهفت نفسه إلى أن يستمتع بالأدب العربى أبناء الجيل الجديد
من المثقفين ثقافة عامة، وهذاه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق الا
بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل
العذاب .

فمضى يكتب للأطفال مؤلفا ومترجما ومقتبسا ومقوما
ومفصحا وأعنى بالتفصيح: نقل القصص والحكايات
والأساطير من مروياتها أو من كتابتها الركيكة المسفة إلى بيان
فصيح بلسان عربى مبين .

ولقد كان كامل كيلانى فى ارتياده لأدب الأطفال عالمى
الزعة إنسانى الروح .

فلم يقف عند الشرق يحيى بدائع «ألف ليلة وليلة» .
«وطرائف جحا» . «أساطير الهند» .

ولم يقتصر على الفكر العربى يدنى منه فلسفة ابن طفيل
فى «حى ابن يقظان» وأدب «ابن جبير» فى رحلته إلى مصر
والحجاز، وإنما تعدى ذلك إلى أساطير العالم وإلى أشهر
قصصه فقدم «روبنسن كروزو» و «جيلفر»، ونخبة من روايات

«شكسبير». وكان كذلك عميق النظر، بعيد الأفق، يجعل التسلية في العرض القصصى سبيلا إلى الإفادة والتأثير.

فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية.

ولذلك انطوى أدبه للأطفال على تربية قومية، وتقويم خلقى وتوجيه اجتماعى، إلى جانب توسيع المدارك بالمعارف والعلوم.

وهكذا قصد كامل كيلانى لمختلف هذه النواحي من الكتابة للأطفال، يلزم نفسه القيام بأعبائها جميعا:

كان يضع النماذج فى مخطط واف لما يجب أن يكون، حتى ترك - كما قال الأستاذ أنيس منصور فى مقال له بعنوان: «ألف كتاب اسمها كامل كيلانى» -

والرواد فى كل ناحية من نواحي الإصلاح إنما يحسون بواعيتهم ويرون ببصيرتهم أن الوقت قد حان لعمل جديد.

فهم يعطون إشارة البدء، وحسبهم ذلك من فضل، وهذا ماكان فى شأن أدب الأطفال.

فقد زال من الأفكار وهم الترفع عنه، والتقى بذلك وعى المربين ورجال التعليم ورغبتهم فى أن يكون حظ الناشئين العرب من متعة القراءة والاطلاع حظ النشئ فى الأمم

المتحضرة، فأقبلوا يكتبون للأطفال، واستنار الطريق، وتعدد المؤلفون أو المشرفون على التأليف.

ومازلنا نظفر يوما بعد يوم بالكرام الكاتبين، حتى ليسعنا القول في غير مغالاة. إن لدينا مكتبة للأطفال صالحة للتجديد والنماء والأزدهار.

ونحن في هذا العهد الثورى الذى نحرث فيه أرضنا من جديد أحوج مانكون إلى أن نوجه عنايتنا إلى أدب الأطفال، ونجعل منها مادة تتحدد فيها المبادئ والأغراض والأهداف التى يتكون منها مجتمعنا الحاضر، فيجب أن تكون قصص الأطفال تصويرا للبيئة، وتمثيلا للروح، وتهيئة للحياة التى تقوم على دعائم من الصناعة والعلم.

وكذلك ينبغى أن تتطور الشخصيات الموروثة من الأساطير. فلا تكون شخصيات رعية وأفراد، وإنما تصور على أنها شخصيات شعبية يجد فى هذه الشخصيات أسوة له يقتدى بها فى مستقبله المرجو، فيقوم بدوره البطولى فى واقع الحياة التى يحياها، وفيما يحيط به من ملابسات.

وعلينا كذلك فى مرحلة التخطيط لأدب الطفل أن نقدم الأساطير العالمية لكل الشعوب لناشئتنا، وأن يطالعوا القصة الهندية، والقصة الصينية، والقصة الروسية، والقصة الإفريقية.

ولكن لا نترجم تلك الأساطير ترجمة تسيء إلى أغراضنا التربوية والقومية. بل نترجمها عن أصلها ونهذبها ونخليها مما يصور استعلاء بعض الشعوب على بعض، ونعلل مواقفها تعليلا يتمشى مع مبادئ الخير والحق والعدل والسلام، وإدراكا لتقاليد الشعوب وعاداتها، إدراكا يمكن من بث روح التعاون الإنسانى السلمى.

وفى طليعة ماينبغى الالتفات إليه أن نحدد ألوان الثقافات والمعارف التى يجب تبسيطها للطفل، حتى نكفل له تنمية كفاياته وإيقاظ مواهبه، وحتى نوافيه بأمهات المعلومات التى تكون شخصيته السوية الواعية المستبصرة، إذ تكتسب من كل علم وفن وثقافة مايقوى خبرتها بالحياة، ويعينها على أن تزاوُل تجربتها فى عزم وتفاؤل وتشبث بالنجاح إلى أقصى غايات النجاح.

وأهم من كل ذلك فى تخطيطنا الفنى لأدب الأطفال أن تكون أحداث القصص، مقدماتها ونتائجها، وكذلك شخصياتها - الواقعى منها والأسطورى - قائمة على الصدق، فكلما كانت الأحداث صادقة على المجتمع، وكلما كانت الشخصيات صادقة على الناس من حولنا - كان التأثير إيجابيا، وكان العمل الأدبى ناجحا.

وإذا كان الخيال عماد القصة وجوهرها فإن الصدق يجب أن يكون رائد هذا الخيال الخلاق. أما الكذب على الحياة والأحياء فإنه يصطدم بواقع الحياة في قوانينها الثابتة وتجاربها التطبيقية. وحينئذ يذهب أثر القصة في النفس، ولا يكون لها في السلوك الإنساني صدى.

وليس أسوأ من المغالاة في تصوير البطولة. والمثل العليا دون ملاحظة الصراع النفسى بين الشر والخير، ودون مراعاة ماتقتضيه الحياة من عوامل الاغراء، فإن هذه المغالاة تجعل من البطولة شيئاً بعيداً مناله، وترينا المثل وهما مسطوراً لا وجود له في الحقيقة.

فلا بد في أدب الطفل أن يرى الناشئة أحداثاً تسير طبائع الحياة، ولا بد أن يطالعوا شخصيات يمكن أن تعيش بين الناس. ومادمننا قد سمينا مانسلى به طفولتنا «أدباء» فيجب أن نتفق على أن لغة الأدب هي: اللغة العربية الفصحى.

وإذن فمن حق أدب الأطفال علينا أن يكون بلسان عربى مبين، وفي فصاحة العربية مجال عريض للكلمات المأنوسة، والجميل المألوفة مما يجعل التعبير أقرب إلى لغة الخطاب.

وليس من المنطق أن نسلى أطفالنا في نشأتهم بكتب ومجلات عامية اللهجة. ونحن نعدهم ليعبروا عن خواطرهم

وأفكارهم تعبيراً عربياً فصيحاً. ونعدهم كذلك ليقروا في
مراحل تعليمهم منذ المرحلة الإعدادية أدباً عربياً فيه مختارات
لشعرائنا وكتابنا البالغاء.

تلك هي التنشئة التي لا تتفق مع مستقبل أطفالنا، فليكن
قصارى مانقدمه في أدب الأطفال من الناحية اللغوية التقريب
بين المسموع والمقروء. والتدرج بالكلمات والأساليب إلى إعداد
النشء أعداداً يتيسربه أن يستمتع بأدبنا العربى، ومافيه من
روائع الفكر.

فإما أن ننشئه قارئاً للعامية، ثم نطالبه بعد بقراءة البلاغة
العربية، فذلك هو طلب المحال.

وإذا كان لى اقتراح فى النهوض بأدب الأطفال فهو: أن
تنشئ الدولة مؤسسة لهذا الغرض. تشرف على هذه الناحية
من حياتنا التربوية والثقافية. وأن يرصد لهذه المؤسسة مال
لتنمية إنتاج أدب الأطفال، ودعمه، وتشجيعه.

وهنا يفسح المجال للكثير من الخطط والمشروعات.

ولعل مايتخذ فى هذا الصدد أن يكون هنالك مشروع: «ألف
كتاب للأطفال» على غرار مجموعة «الألف كتاب» فتتألف
لجنة تختار كل سنة عددا من الكتب. وتكل ترجمتها أو تأليفها
إلى من ترى كفايتهم للترجمة أو التأليف.

ولا شك أن دور النشر المختلفة سترحب بالتعاون مع المؤسسة على تحقيق أغراضها، وستبذل كل دار في هذا الصدد ما لها من خبرة وتجربة.

وستستطيع المؤسسة بما لها من إمكانيات أن تعمل على إنشاء مكتبة القرية، ومكتبة القطار. ومكتبة الحديقة، والمكتبة المتنقلة. من أجل تنشئة الجيل الصاعد، من أجل الأطفال.

وإنى ليسعدنى أن يعنى الأستاذ «عبد الرحمن بدوى» بدراسة رائد أدب الأطفال الأول فى الأدب العربى، والذى المرحوم الأستاذ «كامل كيلانى».

وقد عرف الأستاذ «بدوى» والذى فى أخريات أيامه وكان على مقربة منه ومن جهوده التى تواصلت إلى آخر يوم من أيامه.

الفصل الأول

نشأته وحياته

ولد «كامل كيلانى» فى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٧ .

والده الشيخ «كيلانى إبراهيم كيلانى» الذى يتصل نسبه بالشيخ «عبد القادر الكيلانى» (الجيلانى) .
وكانت السيدة والدته تقول الزجل ..

ولقد عرف الأديب نفسه ، وحدث عن نشأته فقال :

«اسمى (١) (كامل كيلانى إبراهيم كيلانى) ، وأبى كان من أشهر ثلاثة مهندسين فى عصره ، هم عز (بك) ، وسيد متولى (بك) ، والشيخ كيلانى (بك) .

وكنا نسكن فى القلعة فى حصن الجبل ، وكانت لى مربية يونانية مثقفة جدا ، كانت تحكى لى أقاصيص عجيبة ، ملأت على كل خيالى .

(١) من مقال نشر فى مجلة الاذاعة عام ١٩٥٥ وبعض مقالات أخرى .

أستاذى هو الشيخ (أحمد أبو بكر)، وهو شاعر بريابة،
يسترزق من حكايات (أبو زيد الهلالي).

وقد حفظت قصائد الشاعر الصوفى (عبد الغنى النابلسى)،
والشيخ (محمود الملاح) و (الأسطى) و (محمد الشيخ) و (العرجى).

وابان نشأتى ذهبت إلى (الكتاب) مع ابن أختى. وبقيت فيه
أربع ساعات فقط. وكانت سنى أيامها حوالى ست سنوات.

كنا جالسين، منا من يقرأ، أو يحفظ، أو يسمع لزملائه.

ونحن فى انتظار قدوم الشيخ.

وكنت أنا جالسا وحدى أتفرج بالعيال.

وكان فى (الكتاب) عريف، كان يريد تعليق (يا فطة)
جديدة أهداها إليه أحد التلاميذ، وأمسك العريف بمسمار يدقه
فى الحائط، ومال برأسه، فوقع نظره على دواة الحبر الكبيرة
التي يملكها سيدنا الشيخ، فأمسك بها فى يده ليدق المسمار،
فانكسرت الدواة، وأغرق الحبر ملابسه.

فقال العيال كلهم: (هيه)! وقتلها معهم.

ودخل الشيخ، عبد الباقي، على الضجيج، وفقد الأولاد
النفس، وبدأ العريف فى مد الأولاد واحدا واحدا.

وجاء على الدور!

وأصابني الرعب من شدة ضرب العريف للأولاد!

وتوقفت يد العريف عن الضرب، واهتز سقف (الكتاب).
ومال الحائط الذى نستند إليه، وتكهرت أرجلنا الصغيرة.
ونحن نحاول أن نجرى، فلا نستطيع!

واعترضت طريقنا عربة (كارو) كبيرة فاندفعت فى وجه
الحصان كتلة كبيرة من الحجر. فسقط الحصان غارقاً فى دمه
وامتلأت الدنيا بالغبار الأحمر، وأمطرت السماء حجارة
ودخاناً، وأصيب أكثرنا، فسقط يطلب الأمان بعيداً عن الموت
والحيطان. وسقطت مئذنة المسجد الذى يجاورنا، وانكفأ النساء
والشيوخ والأطفال على وجوههم، يصلون ويدعون الله أن
يحسن الختام.

وصفا الجو بعد أن توقف يوم القيامة عن الاستمرار، بعدها
عرفنا السبب.

رمى أحدهم (عقب) سيجارة فى مخزن البارود
(بالمغاورى)، فكسر الجبل، وانحدر بأحجاره وغباره على حيننا
الملاصق للجبل.

وما زالت أكثر مساجد القاهرة محطة المآذن من أيامها.
وكانت هذه الحادثة عام ١٩٠٤، ونجوت من (علقة)
العريف.

وبعدها بسنتين أو ثلاث ذهبت إلى (الكتاب) ثانية، وكانت
أمي تهددني دائما بأن أبي سيضربني. ولكن أبي لم يضربني
قط وعشت كل طفولتي وصباي أنتظر (علقة) أبي بعد كل
غلطة.

وما أن نشأ «كامل كيلاني» وترعرع، حتى أخذ يحفظ
القرآن الكريم في (المكتب)، ثم اتجه إلى المدرسة، فدخل
مدرسة أم عباس الابتدائية عام ١٩٠٧ م.

ثم انتقل إلى مدرسة القاهرة الثانوية، ونال شهادة
(البكالوريا). وقد عكف على دراسة الأدب الإنجليزي، وحفظ
الشعر، إذ كان مشغوبا بالأدب إبان نشأته وصباه.

ثم تعلم الفرنسية، وانتسب إلى الجامعة المصرية القديمة من
عام ١٩١٧ م - ١٩٣٠ م. وكان متفوقا في دراسته، و (زميلا)
لطائفة من رجال الأدب، من بينهم.. المرحومان الدكتوران:
زكي مبارك، و عبد الوهاب عزام. والدكاترة: عبد الحميد
العبادي، وحسن إبراهيم حسن، وفريد رفاعي.

وبعد أن تخرج اشتغل مدرسا فى المدرسة التحضيرية إذ كان معلما للإنجليزية والترجمة، وكان مجيدا للفرنسية، والإنجليزية، وعارفا بمبادئ اللغة الإيطالية.

وفى سنة ١٩٢٠م نقل مدرسا فى مدرسة الاقباط الثانوية بدمهور وفى سنة ١٩٢٢م وظف فى وزارة الأوقاف، وظل فيها حتى يناير سنة ١٩٥٤م. وكان آخر مناصبه بالوزارة، منصب سكرتير مجلس الأوقاف الأعلى.

وقد عمل (كامل كيلانى) بالصحافة والفن خلال تلك المدة فاشتغل رئيسا لنادى التمثيل الحديث سنة ١٩١٨م، ورئيسا لتحرير جريدة الرجاء عام ١٩٢٢م، ثم سكرتيرا لرابطة الأدب العربى من ١٩٢٩م - ١٩٣٢م.

«وكامل كيلانى، بطبيعته رجل معتزل: يحب الوحدة، ويكلف بها، ويصرفها فى البحث والدراسة، وكان دعوى لا يهدأ ولا يتوقف. فقد أصبح عمله هذا، هواية وغاية.

أصبح روح حياته وأيامه.

إنه لا يضيع دقيقة واحدة من عمره سدى.

قال عن نفسه: «ماضى من عمرى شئ قط) كنت أعمل حتى فى يوم المرض: أفكر، وأتأمل، وأرسم خطط العمل. كنت

أذهب إلى جبل المقطم ومعى كتاب - وأنا فى ذلك أومن
بالقاعدة التى تقول:

«العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإذا أعطيته بعضك
لم يعطك شيئاً» .

وظل كيلانى يواصل عمله، حتى بلغ به الجهد يوماً ما،
فتوقف بصره فجأة مدة أربع سنوات، ثم رده الله إليه، وشغفه
بالعمل الذى كان رائده الأول، والهدف الأسمى .

وكان من رأيه أن المعركة بين أدبيين من شأنها أن تجعل
الأدب يفقد اثنين من رجاله، ولذلك كان يؤثر الصمت حين
يهاجمه أحد النقاد، وبهذا الصنيع يخسر الأدب رجلاً واحداً .

فكان شعاره، هو: أن يعمل، ويعمل دائماً .

ويتابع الأستاذ الكيلانى سلسلة الحديث عن نفسه، بالنسبة
لتعلقه بالأساطير وشغفه بها، فيقول: «إن الاسطورة دعامة
حياتى» .

ويرجع هذا إلى أنه ولد فى أحضان جبل المقطم . ، وكان
الابن الرابع عشر لأمه، ولم يظفر بالحياة غيره، فنشأ فى جو
صحراوى سحرى، يعبق بالأساطير والأغاني، فألف منذ

طفولته - العزلة الباكرة - وفلسفته فى هذا أنه لا يرتبط مع العالم إلا فى الضرورة القصوى . وقد كان هذا مما أتاح له أن يقرأ ويستوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من عيون الشعر العربى .

هذا بخلاف الروائع الأدبية والحكم والأمثال وحصيلة غير محدودة من الفكاهات والأقاصيص .

وكامل كيلانى كان طبعه المحايدة . فلم يتعصب لأديب بعينه . ولم يكن يفضل أدبا على أدب ، ولا كاتباً على كاتب آخر ، ولا قصيدة على قصيدة أخرى . إذ أن : (آية الجمال أنك تعيش مع كل عظيم ، فتراه أشبه بالحسناء التى تنسيك الحسان) .

عاش «كامل كيلانى» اثنين وستين عاماً وأشهرها ، حافلة بالعلم والمعرفة .

وكانت وفاته مساء يوم الجمعة ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م . وشيعت جنازته إلى المقر الأخير صبيحة يوم السبت ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

أساتذته :

لو بحثنا شخصية كامل كيلانى نفسانيا نجده رجلاً ملهماً ، يستمد إلهاماته من عالم اللاشعور . ولعل هذا هو سر قوته .

ويعتبر هذا الإلهام هو العنصر الجوهرى الذى تتكون منه شخصيته القوية الساحرة التى تكمن وراء جسمه الضئيل الضعيف.

ولنستمع إليه حينما يشرح العوامل النفسية الفعالة، ويبين العناصر التى جعلت منه أديبا فنراه يقول عن نفسه:

(كان لى خال، اسمه (سعد اسماعيل)، وكان رجلا مكفوف البصر وقد كلفه والدى - حيث لا عمل له - تزييتى، وكان خالى هذا بحرا فياضا زاخرا بالقصص، فكان يقص على مسمعى ما عنده من قصص فى أثناء الليل، مما جعلنى أحب القصص ومطالعتها، وحفظ الأشعار.

وكان لى حوذى (عريجى)، نصف أمى، ونصف فيلسوف وكان حافظا للقرآن الكريم، ولكثير من الأحاديث النبوية، كما كان حافظا لكثير من الحكايات المتعلقة بالسحر والخرافات.

وكان والدى ينصرف إلى عمله، ويترك الحوذى يقص على، أو يطالع لى، وقد سمعت منه قصة «سيف بن ذى يزن» فأثرت فى نفسى كثيرا!

ومن المصادفات العجيبة أن والدى كان صديقا لأحد الأثرياء المعروفين. وفى يوم ما، رآه والدى حزينا، فسأله عن

سبب حزنه فأخبره بأنه كان يعول امرأة يونانية أرملة، ولها بنتان، وأنه سيسافر إلى «سويسرا» ولا يدري ماذا يصنع بهذه الأسرة المسكينة؟.

فأبدى والدى استعدادَه لرعاية هذه الأسرة، وتولت المرأة تربيته وكانت بنتاها على ثقافة واسعة. وأول ماسمعه منها: هو «أساطير اليونان».

وكان هنالك شاعر شعبي من شعراء (الربابة) اسمه (عبده الشاعر) وكان ينشد على ربابته أقاصيص البطولة، فكنت أذهب للاستماع إليه كل ليلة في ميدان القلعة في سوق العصر.

فسماعى لقصص العرب، وأساطير اليونان، وحوادث الأبطال من شاعر الربابة، وامتلاء أذنى منذ الصغر بكل هذا. كان له تأثير في اتجاهي إلى القصة. وقد أعجبتني قصة «سيف بن ذي يزن» كثيرا، وكنت أعقد مقابلات بينها وبين (الإلياذة) و (الأوديسة) لهوميروس، وعز على أن تذهب شخصية «دمر بن سيف بن ذي يزن» هباء بلا تخليد، فصنعت قصة «دمر» وجعلت له ابنا سميته «صفوان». وجعلت هذه القصة في ثلاثين جزءا، نشرت منها - فيما بعد - ثلاثة فقط،

وكان عنوان القصة الذى خطه صديقى الأديب الشاعر الخطاط الأستاذ «سيد إبراهيم» هو (الأمير صفوان وقصته بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال) .

والذى حدث إزاء أول تجربة لى فى عالم التأليف، حينما كنت تلميذا بالابتدائى بمدرسة أم عباس سنة ١٩٠٨ م - أننى ذهبت مع صديقى (سيد إبراهيم) إلى أحد (الكتبية) . فلما رآنى الناشر استخف بى واحتقرنى، وعلمنى هذا أكثر من اللقاء بالناس، ولذلك كنت أنشر كثيرا بتوقيع رمزى، وهو (ك.ك) .

وليس معنى هذا أن القصص كانت كل شئ فى حياتى، فقد كنت مولعا بالدراسة العلمية فى نواحيها المختلفة، فكنت أطلع بالعربية والإنجليزية والفرنسية .

وكان لوالدى مكتبة حاشدة بالكتب العلمية والرياضية، لأنه كان رياضيا بارعا .

فحكفت عليها، وأفدت منها كثيرا . ولقد كنت أحفظ وأنا تلميذ عشرين ألف بيت من الشعر .

وكنت أنتهز فرصة العطلة الصيفية لأحضر فى (الأزهر الشريف) مستمعا ومحصلا .

ومن أساتذتي فيه «الشيخ السحرتي» والشيخ «سيد المرصفي» .
كما كنت حريصا على ندوات الأدب والشعر والعلم . وأذكر
من بينها ندوة الشيخ (مصطفى الحلبي الشامي) الحلواني التي
كنت أحضرها مع (زميلي) الاستاذ (سيد ابراهيم) . وفي هذه
الندوة عرفت (المعلقات) .

أما في أثناء دراستنا بالجامعة القديمة فقد وضعنا لأنفسنا
خطة لدراسة الأدب العربي، والأدب الإنجليزي، والفرنسي،
ودراسة الفلسفة والتاريخ الاسلامي .

وفي الوقت نفسه التحقت بمدرسة (دانتى اليجيري)
لدراسة الأدب الإيطالي .

وكنت أهرب مع «زكي مبارك» إلى مدرسة الأزهر
الفرنسية وهو الاسم الذي أطلقناه على القسم الليلي الذي أنشأته
البعثة الفرنسية بحى الأزهر .

قرأ «كامل كيلاني»، (عنتره، و«سيف بن ذي يزن» و
(فيروز شاه) و (حمزة البهلوان) و (الظاهر بيبرس) .

وهي في مجموعها تبلغ حوالى مائة وسبعين كتابا، ولكن
هذا الرصيد الضخم لم يكف القارئ الطلعة، الذي اندفع يقرأ

الأساطير فى الأدب الأوربى: (روينس كروزو) (وجيلفر)
وغيرهما من أساطير الهند واليونان .

فأنشأ بهذه القراءات - فى أعماقه - منطقة خيالية عجيبة،
ظل يعيش فيها حتى انفجر حاجزها، عندما بلغ غاية قوته،
على هذه الصورة الرائعة .

وقد أمدّه التاريخ بالمادة الخام، فقد قرأ إلى هذه القصص -
أمهات كتب التاريخ .

وبجانب ذلك فى أثناء دراسته - قرأ كتب الأدب العربى
القديمة، مثل: (الأمالى) و (الكامل) للمبرد و (العقد الفريد) .

مواهبه الأدبية

ولد الكاتب الألمعى (كامل كيلانى) أديبا وبعد الحاج
(مصطفى الحلبي (بائع البسبوسة) - الذى كان يقف أمام
الحارة، التى كان يقطنها كامل كيلانى - أول من أوحى إليه،
وكون ملكته الأدبية .

وكان هذا البائع أديبا يحفظ عن ظهر قلب قصائد العالم
الصوفى (عبد الغنى النابلسى) والشيخ (محمود الملاح)
والشاعر الذى كان يغنى على (الربابة) فى القهوة المواجهة

لحارته، و (الأسطى) محمد الشيخ (العرجى). وكانت بداية
(كامل كيلانى) لحياته الأدبية بأسلوبه الخاص ونظريته للحياة
مما يوحى إلينا بأنه سيأخذ مكانه الطبيعى بين صفوف الأدباء
والمؤرخين. بل أن اتجاهه التاريخى كان غالباً فى البداية،
على اتجاهه الأدبى، تشهد بذلك مؤلفاته: (ملوك الطوائف) و
(مصارع الخلفاء) و (مصارع الأعيان).

ثم أبرز اتجاهه إلى الشعر. فهو شاعر يخفى آثاره الشعرية،
ويحتفظ بها لنفسه.

ثم بدأ يراجع (ابن زيدون) و (ابن الرومى).

ثم اتصل بالأدب الأندلسى، وترجم كتاب (نظرات فى
التاريخ الإسلامى) لدوزى، واتجه بعد ذلك شغفه إلى
(المعرى). وعاش طويلاً معه، وأخرج «رسالة الغفران».

شغف الكيلانى بشخصيتين فى الأدب العربى، وكلف بهما
كلّفا عجباً هما «المعرى» و «جحا».

وهو يقول فى ذلك، أنهما يجمعان فى نفسه أهواءه وآراءه،
وأصدقاء نفسه. فهو جماع بين (المعرى): العابس المتجهم و
(جحا) الباسم الساخر.

وهو أيضا قد ضاق بما أدلى به الأدب الإنجليزى من
التقدير لشخصية (نصر الدين خوجة) : (جمال التركى) . فى
حين أن (جحا العربى) (أبا الغصن دجين بن ثابت) أقدم منه
تاريخا . وأغلب مانسب إلى (نصر الدين) إنما هو فى الحق من
آثار (أبى الغصن) .

وجحا (أبو الغصن) يمثل الشخصية المصرية المرححة
الفكهة ، وتقوم فلسفة فكاهته على قاعدة : (عامل الناس بما
اختاروا أن يعاملوك به) .

أما (أبو العلاء) فيختلف ، وميزته عند (الكيلانى) أنه يعبر
عن كل أفكاره ، فهو يرى نفسه شبيها به .

ومجمل القول أن (كامل كيلانى) كان مغرما بالأدب منذ
حياته الأولى . ويكفى فى مثل هذه الحال أن يقرأ كتابا غير
الكتب المقررة عليه ، ويحاول أن يفهم مقالا فى صحيفة ، فإنه
بعد ذلك يحس فى نفسه الرغبة فى قراءة ما هو غير مدرسى .
وخطوة بعد خطوة يرى نفسه خيرا مما كان عليه ، وربما رأى
نفسه مجدا عن كثير من لداته ..

وعندما يضل إلى مرتبة الإحساس بالتفوق يكون قادرا على
أن يحرق أصابعه ، وربما أحرق ثيابه ، فى سبيل أن يتعلم كيف
يكتب ، مثل ما يكتب هؤلاء الذين قرأ لهم هاتيك النفائس !

وأهم حادث أثر في مجرى حياته إنما هو أن طائفة من أصدقائه ماتوا سنة ١٩١٤ م بالهيفة، فقدم فجأة، وكان بعضهم أقوى منه صحة، فأحس بأن القدر قد تخطاه وأن مابقي من عمره كأنما هو زيادة.

وسئل ذات مرة: لو بقي من عمرك يوم فماذا تفعل؟ فأجاب الكيلاني قائلا: أكمل آخر ملزمة من كتابي.

وأصيب مرة بأزمة قلبية، فلم يحزنه خلالها إلا أنه لم يقرأ كتاب «برودكستر» وهو من أبعد الكتب - التي قرأها - أثرا في حياته، وقد توفر على قراءته بعد أن أبل من أزمته حتى لا يندم عليه، لو ألت به أزمة أخرى.

هذا الشاعر، هذا الرجل الذي عاش في الأساطير، والقصص والرؤى، بين (ألف ليلة) وبين (سيف بن ذي يزن) الذي يحبه كثيرا: هل له قلب؟

هل أحب؟

وكيف كان أثر الحب في أدبه وحياته؟

الحقيقة أن قصة قلب (الكيلاني) لم تكتب على الصورة التي يحتفظ بها في أعماقه!

إنه كان لا يريد أن يطلع أحدا على هذا السرفى هذه السن،
ولكن قصة (سنية) فى مجموعته القصصية - مختار القصص،
تعطى صورة قريبة (لفرتر) الذى أوشك أن ينتج فعلا، لولا
خاطر شعورى كان سببا فى إنقاذه وهو: أنه لم يودع فراشه
الذى أمضى حياته فى أحضانه، وهو ودود، ألوف بالطبع!

هذا الحب دفعه إلى أن يحفظ ديوان (العباس بن الأحنف)
ويسترجعه. وتترأى له - فى خلال شطراته - أحلامه وآلامه،
ومشاعره.

لقد أحب العباس بن الأحنف حبا صادقا نقيًا. وكذلك أحب
الكيلانى.

وذكر الكيلانى أنه منذ طفولته إلى شبابه وشيخوخته لم
يشغله شاغل عن الفن والأدب والاطلاع والتفكير.

ثم قال: علينا أن نذكر أن النهار طويل، والليل أطول. ومثل
لا يضيع جزءا من وقته فى غير طائل.

ومتعنى هى القراءة، والقراءة الموصولة التى تؤدى بطبيعة
الحال إلى الكتابة الموصولة، وروافد الثقافة متعددة، وينابيع
المعرفة كثيرة. فأنا أرافق - منذ عهد بعيد - أمثال «شكسبير» و
«موليير»، و«المعري»، و«دانتى»، و«هوجو»، و«موسه»، و

«كرلريدج، و«بايرون، و«شيلي، و«ديكنز، و«ماكولي، وغيرهم.

ومن هذه المرافقة أقدت، وتأثرت في ذهني وخاطري المواد المختلفة التي تشير إليها.

إتجاهه القصصى:

الواقع أن الاتجاه القصصى عند (كامل كيلانى) كان نتيجة طبيعية لطابع شخصيته ومعالم نفسه، ولو أنه لم يكتب القصة لعق فطرته، ولظل فى عداد «الأدباء، ولم يقفز إلى صفوف «البواد». الحقيقة أن كل أثر من آثار «كامل كيلانى» - فى مستهل حياته الأدبية تعطينا خيطا من خيوط شخصيته القصصية. كما جاءت - بعد ذلك - قوية خلاقة - عندما أبدع هذا اللون الجديد فى الأدب العربى، وهو «قصص الأطفال».

فإن التاريخ، والشعر، والأدب - كلها نوافذ على الفن القصصى وإعداد له. وهو «النواة» التى تخلق الرواية.

وإذا عدنا إلى الوراء، لحياة «كامل كيلانى» وجدناها قد رسمت وفق أسلوب قصصى، فقد تفتحت روحه على الأسطورة العربية، فاندفع يقرأ كل أسطورة، فى كل أدب.

وإذا أردنا أن نبحث عن الحافز الذي دفعه إلى السير في هذا الاتجاه الخاص بالطفل، وجدناه ذا فرعين:

أولهما يتصل بشعور «الكيلانى»، وهو طفل حينما كان يرى قصص الأطفال الأجنبية آية من آيات الروعة والجمال، والقصص العربية فى الغاية من المسخ والتشويه، حتى لقد قال لزميله وصديقه الأستاذ «سيد إبراهيم» حينما كانا طفلين: «إن هذه الكتب العربية تبغضنا فى القراءة».

فقال له: «ألف خيرا منها، إن كنت فاعلا».

فظل هذا الشعور يلزمه منذ طفولته المبكرة، وهو يقرأ ويكثر من القراءة فيختزن كل موقف رائع، وكل قصة طريفة يعجبانه، لأنهما يعجبان الأطفال الذين هم فى سنه حتى جاء اليوم الموعود، فظهرت أول قصة من قصص الأطفال سنة ١٩٢٧، وهى قصة «السندباد البحرى».

أما الفرع الآخر، فقد يكون الحافز لاتجاهه فى هذا السبيل إنه قص على ابنه قصة فرآه - بعد أيام - يقصها على الخادم بحذافيرها محافظا على أدق الأجزاء، وزادت دهشته حينما علم أنه قصها مرات على جميع لداته، لم يحذف منها شيئا.

فأدرك - حين ذاك - أن هذه القصة تشوق جميع الأطفال، وأصبح أمام أمرين:

إما أن يقتصر وقته على تربية أولاده وتثقيفهم بهذا الضرب من القصص، وإما أن ينشره ويعممه، ويربى أولاده مع الجماهرة، وآثر الأخيرة.

وتوالى قصصه للأطفال من ذلك الحين، حتى بلغت أكثر من مائتى قصة.

ونحن إذا ما انتقلنا من تبیین الحواجز إلى استجلاء الأسس التى قامت عليها هذه القصص عنده - وجدناها ثلاثة:

١ - الجانب اللغوى .

٢ - الجانب المعنوى الخلقى .

٣ - الجانب الموضوعى .

أما الجانب اللغوى فيرى الأستاذ «الكيلانى» أن كتب المطالعة العربية كلها - على تفاوتها - لا تصل التلميذ بترائه الأدبى، ويرى أنه ينبغى أن تكون كتب المطالعة قنطرة، أو طريقا معبدا ميسرا - مهما يطل - يصل الطفل منذ الروضة (بالمتنبى) و (أبى العلاء) و (أبى تمام)، بل بشعراء المعلقات!

وطريقته فى استخدام اللغة هى التكرار والإعادة مع الشكل الكامل لكل حروف الكلمة، فهو يكرر الكلمة الجديدة فى

القصص نحو خمس وعشرين مرة، حتى يحس الطفل أنه فهمها فهما دقيقا حيا في الجملة نفسها، وحتى تثبت في نفسه، وتصبح جزءا من ثروته اللغوية، يستعملها في حديثه وكتابته.

أما العناية بالشكل الكامل فالمقصود منها تجنيب الطفل اللفظ الخاطيء، لأن الطفل بحافظته القوية، إذا حفظ الكلمة خطأ، لزمته طول حياته، فيعسر رده إلى الصواب من ناحية، ويلتصق الخطأ بكرامته، من ناحية أخرى. فإذا رد إلى الصواب حز في نفسه، وقد يغضب ويثور لكرامته، ويلعن اللغة وينفر منها، فالإنسان عدو ما يجهل.

وأما الجانب المعنوي الخلقى: فإن حرص (الكيلانى) على تجنيب الطفل الخطأ فيه لا يقل عن حرصه على تجنيبه الخطأ اللفظى، لأن الطفل إذا رأى انتصار الشر مرة ضعف إيمانه بالحياة، وتزلزلت عقيدته بالخير.

وأما الجانب الموضوعى: فإن (الكيلانى) لم يقتصر على مجال دون آخر، ولا على أدب أمة دون غيرها، وإنما استقى من كل لون، واغترب من كل أدب، مالا يجوز الجهل به، وهو يسمى هذه القصص (الفيثامينات الفكرية)، فلا بد أن تغذى بها عقول الناشئة من ضروب شتى وبمقادير متفاوتة.

ونحن إذا ما عرضنا قصصه وجدنا فيها القصص
الأسطورية، والقصص التاريخية، والقصص الجغرافية،
والقصص العالمية .

ومن ذلك يتضح لنا أن الأستاذ (كامل كيلانى) لم يقصر
همه على تنمية الخيال وحده، ولا تنمية الثروة اللغوية وحدها،
وإنما قصد إلى هذين، وإلى مقاصد أخرى، قد يكون منها إمداد
الطفل بالمعلومات العلمية، والتاريخية، والجغرافية، وتعويد
التفكير العلمى المنظم، ووصله بركب الثقافة والحضارة من
حوله فى إطار قصصى يشوق، وأسلوب سهل يستهوى ويروق.
وتعهد الكيلانى بالطفولة وتربية الناشئة، لأن الطفولة
ضعف والعلم رفق. وأخلق أن يمر بها رفيقا، كمر النسيم
بالأزاهير، وأخلق بالعلم الحفيف أن يترفق بهم، ويتملق تلك العواطف.
على أن للطفولة أفئدة حاكية وضاعة، كصحيفة السماء،
فحذار أن تخطو فى تلك الأفئدة - بل الصجائف - إلا بأقلام
لبقة، بتصوير الملامح، فإن للطفولة قلوبا حساسة حافظة كأنها
«ورق المصور الحساس» .

وفى مذهب التربية الحديثة، أن يؤخذ الوليد فى تعليمه
الجدى، بالشهى الملهى من فكه الحديث ومشوقه، فى مزاج

من النقاش، والتصوير الكلى، ليلتقى جدا العلم المجتهد ببشاشة
الجمال والفن الساحر، ترتاض به نفسه الكليّة.

منهاجه الأدبي

طريقة الكتابة عند الكيلانى:

نراه يحدثنا عن ذلك فيقول: ليس لى وقت خاص أكتب
فيه، ولا مكان خاص، ولا طريقة خاصة.

على أن خير الأوقات التى تحلولى فيها الكتابة هى الأوقات
التي أشعر فيها بأن صحتى أحسن، وأن الضعف الجسماني -
الذى يكاد يلازمنى - قد حل مكانه شئ من النشاط والصحة.

وكثيرا ما يحلولى أن أكتب ليلا أو سحرا، على شريطة أن
أضطر إلى الكتابة اضطرارا.

وربما حسبت - لكثرة ما أكتب - أننى مشغوف بالكتابة،
والحقيقة أننى من أزهد الناس فى الكتابة، وإن كان شغفى
بالقراءة قد أرى على كل حد.

أما الكتابة، فإنى أهرب منها هروبا، ولا يضطرنى إليها الا
تقييدى بمواعيدها الاجبارية، وتقديرى التبعة المترتبة على
التوانى فيها.

ولست أتعب فى كتابة الموضوع، وإن كنت أتعب فى التفكير فيه قبل كتابته.

وربما لازمتنى الفكرة شهرا إن لم أقل سنين وأنا لا أجد الفرصة لقيدها كتابة، ولست أكتب الا فى آخر الوقت.

وربما شغلتنى أعمالى طوال يومى، فأعود إلى البيت فى التاسعة أو العاشرة أحيانا، ثم أبدأ فى الكتابة حتى أتم الموضوع الذى بدأت فيه، ولو مضى فى ذلك الليل كله.

وليس يعوقنى عن الكتابة أن يتكلم بجوارى ألف شخص، ولكن الصياح أو الصراخ هو الذى يزعجنى، ويقطع على تفكيرى، ويهيج أعصابى إلى أقصى حد.

وليس يعوقنى أن أكون جالسا بين أولادى وزوجى فى أثناء الكتابة بل قد يحبب إلى ذلك وينشطنى تنشيطا.

وربما أنصت إلى حوارهم اللذيذ فى بعض الفترات التى أستريح فيها من الكتابة، وقد أقص عليهم قصة قصيرة، أو أشاركهم فى حوارهم، ثم أعود إلى الكتابة.

وقد عرفوا أننى لا أغضب إلا إذا طلبوا إلى أن أتكلم، أو أبدى رأى فيما يريدون فى أثناء الكتابة.

وهذه عادتى فى أثناء القراءة أيضا . وقد ألفوا منى ذلك، فأصبحوا يتكلمون فيما شاءوا من الموضوعات، دون أن يوجهوا إلى سؤال واحد .

وكان موقف الأستاذ «الكيلانى» ظاهرا، حينما لعب الاستعمار دوره، إذ أراد انتشار العامية للقضاء على اللغة الفصحى، وفرض لغته على اللغة القومية ليتخذها الناس لغة لهم، ودستورا فى المخاطبات والمراسلات، وشئون البلاد . ولكن فشل الاستعمار وأذنا به، إذ ازدهرت اللغة العربية، وذلك بتقوية الشعور القومى، بفضل المجاهدين المخلصين .

ونرى الكيلانى يحدثنا عن موقفه الحاسم فى ذلك منذ ربع قرن إبان المعركة اللغوية، فيقول :

«أنا أحارب اللغة العامية التى يدعون إليها» .

أحاربها بكل ما أستطيع . ولكن أسلوبى فى محاربتها، كما قلت فى غير مرة، هو (حرب البناء الذى يصنع التاريخ) .

وأنا أقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابة بالعامية . أى عامية نكتب بها . عامية مصر، أو العراق، أو سورية، أو الحجاز، أو عامية القاهرة أو الإسكندرية أو أسيوط أو دمياط؟ .

وأنا أقدم لكم نصا كتب باللغة العامية أيام (محمد على) .
وهذا النص عبارة عن خطاب يطلب فيه مرسله استدعاء
(البوليس) لفض معركة بين شابين، أحدهما اسمه (شادى)،
والآخر اسمه (مهران) . وهذا هو النص:

(حيص ليص، ولد «شادى اتعارك مع ولد «مهران، ليلة
البارحة جبل طلوع الشمس بدنشة، وعمل موزجلاية كبيرة،
وشده وزعطه، وشاله ومعطه، وتناول دنشة حراية كبيرة،
وضربه فى فردة عينه البحرية!).

ولقد وقفت بشدة أمام (محمود تيمور) عندما كان يكتب
الحوار فى بعض قصصه بالعامية، قلت له: اذا أردت أن يكون
أدبك محليا فاكتب بالعامية، وإذا أردت لأدبك الخلود فاكتب
بالعربية!

وأصبح (تيمور) الآن من ألد أعداء العامية .

ويظهر مذهب كيلانى واضحا حينما رد على الذين يقولون
إن كتابة الحوار القصصى باللغة العربية العامية لا يضعف
الأدب، ولا يصبغه بصبغة محلية ضيقة، فقال:

«إن الكتابة وضعت لكى يفهمها الناس، وكلما استطاع
الكاتب أن يفهم عددا أكثر كان نجاحه أكبر.

والأمم العربية مختلفة اللهجات، ولكن تجمعها، وتوحد بينها اللغة الفصحى الواحدة، وهى اللغة العربية. والصفوة المثقفة لا تفهم بغير الفصحى.

ففى أى سبيل نضيق هذه الامبراطورية الفكرية. وبأى ثمن؟

لاشك أن حوار القصص يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى، والذين يعمدون إلى جعل الحوار باللغة العامية الدارجة والمألوفة لكل شعب لا يفعلون ذلك إلا عن ضعف، وعدم إتقان اللغة. فلو أنهم كانوا متمكنين من لغتهم ماجاء حوارهم عاميا مبتذلا.

ولقد عنى الكيلانى بتنشئة الاطفال، لأنه يعتقد أن طالب الاصلاح يجب أن يعبد الطريق. وأول مايعنى به المهندس إنما هو متانة الأساس، فالطفل هو أساس الأمة وموضع أمل الجميع. فالعناية به عناية بالأمة جميعها.

ولقد أحس (المربى الكبير) أن الطفل الذى يعيش فى قصصه، ويرى الخير دائما ينتصر، ثم يكبر ويدخل معترك الحياة - يجدها كلها صراعا وشرا، فيصاب بصدمة يقف معها مشلولا أمام الخديعة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه.

ولهذا كان (منشئ الجيل) يضع الشر دائما بجوار الخير، ويصور له الصراع العنيف، الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة، وتنتهى القصة. لكن الخير ينتصر فى النهاية بكل وسائل الذكاء والمكر والحيلة.

وكانت فلسفته فى ذلك - ليغرس فى نفوس (الأطفال - حقيقة الحياة الواقعة - وهى أن النصر للخيرين الأذكياء، والهزيمة للأشرار الأغبياء!

الفصل الثاني

رحلاته إلى العالم العربي

لقد عبر «كامل كيلانى» عن رحلته فى العالم العربى بأسلوب فياض، يطرب منه القارئ، لما فيه من سلامة فى اللفظ ورشاقة فى المعنى فهو يصف البلاد العربية عندما زارها، وصفا بديعا للأيام التى قضاها فى: فلسطين، ولبنان، وسورية. ففى كتابه (مذكرات الأقطار الشقيقة) الذى ألفه سنة ١٩٣٤م بعد عودته من الأقطار الشقيقة يقول:

(هى أيام بهيجة قضيتها فى فلسطين ولبنان وسورية، تتضاءل بهجة الأعياد والمواسم إذا قيست إلى بهجتها. وقد مرت - على طولها - قصيرة كما تمر الأحلام الشهية، تاركة - وراءها - أعذب الذكريات، وأبدع الأمانى.

هى أيام بهيجة، نعمت فيها بأحاديث أبناء العروبة وشبابها وشيوخها، ورأيت فى أحلامهم وآمالهم وآلامهم صورا صادقة من أحلامى وآلامى، فذكرت قول ابن الرومى:

مواقيت أهواء توافت على هوى

فلو أرسلت كالنيل لم تعد موقعا

إذا ما دعا منا خليل خليله

بأفديك، لباه مجيبا، فأسمعا

وليست هذه الذكريات العطرة الا صدى لتلك الايام
الساحرة، التي قضيتها فى تلك البلاد الفاتنة، وسعدت فيها
بلقاء زعماء الفكر، وقادة الرأى، فى هذه الاقطار المحبوبة.

فإلى أبناء هذه البلاد: فتيتها وكهولها وشيوخها، وإلى كل
نصير للعروبة والعرب، وإلى كل من يعمل على تقوية الاواصر
وتوثيق الصلات بين هذه الاقطار المتأخية الشقيقة - أقدم هذه
الذكريات. وليس لى فى تقديمها من فضل، وإنما مثلنا، كما
يقول القائل:

كالبحر يطره السحاب، وماله

فضل عليه، لأنه من مائه

ثم يواصل حديثه ليصف لنا شعوره فى تلك الزيارة،
فيقول:

إن المصرى ليحار أمام مايلقاه من الحفاوة والتكريم فى تلك
البلاد المحبوبة. ثم تشتد حيرته ويقوى شعوره بالعجز عن
مقابلة أهليها احسانا باحسان. فتثور نفسه أمام هذا العجز

الفاضح . ويرى أنه مهما بذل من ثناء وشكر، فهو مقصر شديد التقصير.

ثم نراه يتابع حديثه أيضا فيقول:

وليست هذه الحفاوة - فيما رأيت - مقصورة على مصرى دون مصرى، لعلمه أو فضله أو أدبه، بل هي حفاوة عامة، يختصون بها كل مصرى يلقونه في بلادهم الساحرة الأخاذة، فهم يتخذون من كل أديب مصرى رمزا للأدب المصرى، ويكرمون في شخصه الضعيف مصر المحبوبة وأدبها وتفكيرها.

ولقد كان للنعمان بن المنذر يوم نعيم في كل عام . وكان يسعد به أول من يصادفه في ذلك اليوم من الناس .

وقد آلى إخواننا اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون والعراقيون على أنفسهم ليعلن أيامهم كلها - كيوم النعمان - أيام إسعاد . وأقسموا ليغرقن بإحسانهم وأفضالهم كل مصرى يعتز بشرفيته، ويفخر بعروبته .

ثم يقول:

لقد زرت الأقطار الشقيقة مرتين، في عامين متعاقبين، فما ازددت بها لإفتنة وهياما، ثم يتابع الحديث بقوله:

وما أكذب القارئ حين أقول له: إننى مازلت مأخوذا بسحر
مارأيت وسمعت. وما زلت حالما، وما أحسبني أشفي من سحر
هذه البلاد، أو أتنبه من هذا الحلم اللذيذ الرائع، إلا إذا غمرنى
سحرها، عودا على بدء.

القومية العربية، وعواملها

لقد دعا كامل كيلانى إلى وحدة الشمل بين العربى فى
القاهرة وأخيه فى لبنان وسورية والعراق وفلسطين. بل فى
سائر البلاد، من الخليج إلى المحيط، إذ أنهم قد اتفقوا فى
الجنس والتاريخ واللغة، تلك العناصر التى تعتبر الدعائم الكبرى
للوحدة العربية الشاملة.

وكانت نظرة كامل كيلانى إلى اللغة نظرة اكبار واجلال،
لأنها لغة البلاد العربية، وبها نزل القرآن الكريم دستور السماء،
وأنه متى تمسك العرب بلغتهم عز جانبهم، وجمع شملهم، وشد
من أزرهم، وأصبحت لهم كلمة عالية، وأصوات مدوية
يعربون فيها عن آمالهم وأحلامهم، حتى يعود لهم مجدهم
الغابر التليد.

وهذه النظرة الدقيقة نلمسها منه حينما كتب عن وحدة
اللغة، عندما زار البلاد العربية، ولمس فى أهلها: الشجاعة،

والنبالة، ومكارم الاخلاق، وحسن العشرة. مبينا غبطته وفرحته وسروره بهذا اللقاء فتكلم عن اللغة باعتبارها العامل الأساسى لبناء الوحدة.

القومية العربية ووحدة اللغة

قال كامل كيلانى:

لقد كان يملأ نفسى شعور عجيب، حيثما حلت، وكيفما أدت لحاظى فى تلك البلاد، فقد كان يتمثل لى أننى سائر فى وطنى، وإننى أرى فيمن يكتنفنى من الاصدقاء، مواطنين أعزاء وأخوة أشقاء.

وكانت نفسى تطرب لكل عمران ألقاه فى طريقى، وأشعر إنه اصلاح فى وطنى الذى نشأت فوق أرضه وتحت سمائه، وأخلصت له المحبة والولاء.

ترى من أين نشأ هذا الشعور؟ وما مصدر هذا الحرص الشديد على كل خير يصيب هذه الاقطار الحبيبة إلى نفس كل شرقى مخلص لشرقيته، معتر بعرويته؟ ولماذا يهتم المصريون ببناء هذه البلاد ويشركونهم فى أفراحهم وأتراحهم على السواء؟ ولماذا يغمرنا أهل تلك الاقطار بحبهم وإخلاصهم، ويغرقوننا بأفعالهم وإحسانهم؟ وما مبعث هذا الشعور؟

فضل ذلك كله عائد إلى اللغة العربية التي ربطت أواصر
هذه البلاد، ووحدت ثقافتها وآدابها وأمانيتها وأحلامها،
فأصبحنا بفضلها نعجب جميعا بالمتنبي، وابن زيدون،
والمعري، وابن الرومي، وأبي نواس، والجاحظ، وعبد الحميد،
وابن المقفع، ومن اليهم من أفذاذ الشعراء، وفحول الكتاب.

وأصبحنا نرى في كل فخر ينسب إلى هؤلاء الأفذاذ
وأضرابهم، فخرا تالدا لنا، ومجدا باقيا، نتباهى له، مرفوعى
الراءوس، موفورى الكرامة.

وقد أصبح مرتاد هذه الأقطار بفضل هذه اللغة الجليلة
لا يكاد يسير فى أى مكان منها خطوة الا تمثل له فيها موقف
تاريخى مجيد، أو حوار أدبى رائع، أو طريقة بيان ساحرة. أو
قصة خيالية تعجبه فيطرب ملء نفسه.

وما زلت إلى اليوم - على بعد الشقة - يتمثل لى المنظر
الأخاذ كلما قرأت هذين البيتين:

أنا والله هـالك آيس من سلامتى
أو أرى القمامة التى قد أقامت قيامتى!

نهضة الشرق

ثم تكلم كامل كيلانى عن نهضة الشرق مبشرا بالوحدة،
فقال: إن نهضة الشرق واعداد وسائلها وتهيئة أسبابها وتذليل

العقبات التي تعترضها - لهى أكبر مايشغل أساطين هذه البلاد
الذين ألوا على أنفسهم ليعزن الشرق بعد إذلال، ويرفعن أعلام
النهضة فى بلادهم عالية خفاقة، وليبذلن جهود الجبابة فى
سبيل إنهاض الشرق من كبوته، وإقالتن من عثاره وكلهم
يقول:

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وليس بين الإنسان وإدراك طلبته، إلا أن يريد، ومتى
وجدت الإرادة بعد إرادة الله، فقد وجدت الوسيلة.

لقد عانى الشرق من ضروب الإعانات والخمول وأفانين
الغفلة ما عانى، حتى كاد داؤه يصبح عضالا على المصلحين.
ولكن لكل بداية نهاية، وبعد الليل النهار، وزمهرير الشتاء يعقبه
صفاء الربيع، وحرارة القيظ فى الصيف يعقبها اعتدال
الخريف، وما أصدق المثل القائل:

«كل مالم يقتلك، فهو ينفعك».

لقد استيقظت الأمم الشرقية من رقاد طويل، وأصبحت
الوحدة الفكرية مطلب الجميع وأنشودة الجميع وغاية الجميع،
فما أكاد أشهد حفلة مدرسية أو اجتماعا خاصا أو عاما الا
سمعت فيه من الاناشيد والخطب فى تمجيد العروبة وتوثيق

أواصرها ما يملأ النفس ثقة ويقينا بدنو فجر هذه الليلة الطويلة
المظلمة .

ونرجو أن يمتد بنا الاجل ، فنشهد مغتربين فجر هذه الليلة .
متى يطلع هذا الفجر؟

ذلك مانرقبه من زعماء هذه البلاد الشقيقة، وشبابها،
وصحفييها وحاملي ألوية النهضة فيها.



الفصل الثالث

أعماله

بأعمال «الكيلانى» المتواصلة، سجل له التاريخ فى صفحاته
البيض النصع أجل الآثار، إذ كتب مصارع الخلفاء، ومصارع
الأعيان، وحقق رسالة الغفران، وشرح ديوان ابن الرومى،
وترجم الأدب الأندلسى، ونظرات فى تاريخ الاسلام، وروائع
من قصص الغرب، وفن الكتابة، وموازن النقد الأدبى،
وتناول الكتابة فى الرحلات بعنوان: (ذكريات الأقطار
الشقيقة).

ثم التفت إلى فن (أدب الاطفال) فكان رائد قصة الطفل من
أول تعليمه الابتدائى إلى الدراسة الجامعية فى حلقات متوالية
تناسب سن الناشئ وتدرجها.

تحقيق المفاهيم الأدبية

١ - كامل كيلانى مع أبى العلاء المعرى:

(كامل كيلانى) كتاب ضخم يضم بين دفتيه كنوزا حية
من الآداب العربية والغربية. وخصيصة فى هذا أنه كالنحل

الذى يحوم حول الزهرات ويمتصها ويتمثلها، ثم يخرجها للناس أدبا، فيه شفاء للناس.

فهو لا يزال يقرب إلى الناس كنوز هذه الآداب المطمورة، وراء غموض العباقرة، فى ديباجة صافية، يفهمها القارئ العادى، ويرضاها الاديب.

وصداقة (الكيلانى) لأدباء العربية - فى عصورها المختلفة - صداقة وثيقة، ولكن هذه الصداقة ترتفع إلى درجة القرابة بينه، وبين شعراء العربية: أبى تمام، وابن الرومى، وأبى العلاء.

ولعل «كامل» هو الكاتب الوحيد الذى تستطيع أن تنسق مؤلفاته فى ثبت مع خطوات الإنسان فى مراحل حياته: فتلك (مكتبة الطفل) وتلك (مكتبة الشباب)، وتلك (مكتبة الاديب).

ولقد عنى كامل كيلانى بأبى العلاء المعرى عناية كبيرة يدل على ذلك مايلى:

٢ - أبو العلاء المعرى فى لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوى المزاج ممعن فى السخط على الحياة، بالغ فى سخطه ويرمه مدى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين.

وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الأمم التي نقلت
آدابها إلى العربية، وعالم واع بأخبارها، صادق حين يقول:
مأمر في هذه الدنيا بنوز من إلا وعندي من أخبارهم طرف
وهو مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة، والرواية
الواسعة لآدابهم المتباينة، محص فطن خبير بتميز الأخبار،
دقيق في نقد زائف القول من صحيحه، وأبو العلاء، مفكر،
عميق التفكير، ملهم المعنى، قوى الحجة عالم من أساطين
اللغة، المشهود لهم بالسبق والتفوق.

وهو إلى ذلك، شاعر (فنان)، عريق في الفن، عارف
بروائعه، خبير بأسرار الجمال، ومواطن الجلال، وهو حر الفكر،
واسع الخيال، فياض المعاني، مشرق الديباجة، لا يعوقه عن
بلوغ غايته شأو، ولا يقف في سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة من سمات شعر أبي العلاء - الحافل
بروائع الفن والفلسفة - حين تقرأ كتاب (اللزوميات) - تطالعك
كل صفحة منه بما يزيدك اقناعاً بتلك الميزات العالية، التي
أفردت أبا العلاء، فأحلتها أسمى مكان بين شعراء العربية جميعاً
كما يرى بعض الأدباء، وتعاونت على تكوين شخصيته
الجذابة، فجعلته من بين جبابرة الفكر وأساطين الفن المبرزين.

وأى روض من رياض الفكر، أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الروض الفكرى البهيج، الذى تتحلى به كل صفحة من صفحات (اللزوميات) أذ تقرؤها فتطالع فيها سفرا من أسفار الحياة حافلا بأسمى وأروع ما يبدعه العقل الإنسانى، وتتمثل فيه الخوالج النفسية واضحة جلية، لا لبس فيها ولا إبهام؟

اقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناة.. وأنا الزعيم لك بأنك لن تجد إلا ما حدثتك عنه من الروعة والجلال، فإذا حال دون امتاعك به حكمة غريبة عنك، أو لفظة تنبو عنها أذنالك - فحذار أن تعجل بالحكم على الرجل، قبل أن تثبت من وجهها الصحيح، فليس هذا ذنبه وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته، وإنما إثم ذلك عائد إلى تسرعنا فى الحكم، أو قلة محصلنا اللغوى، أو عدم المامنا بقسط كاف من تاريخ الأمم العربية الأخرى، التى أثرت فى تاريخها وفى أدبها معاً، أو قصورنا فى درس جغرافية تلك البلاد.

وليس على أبى العلاء إثم إذا عثرت كذلك فى شعره على كلمة غريبة وتبادرت إلى ذهنك كلمة حسبتها أليق منها وأبلغ فى أداء المعنى، فمضيت فى حكمك لا تلوى على أحد أو على شئ.

نعم، فإن الرجل دقيق، يعنى مايقول، وليس مغرورا يولع
بالبهرج ولا منافقا يكذبك نفسه، ولا قليل البضاعة يزجيهما
عليك. ولكنه رجل واسع الفكر، بعيد المرمى. وليس أجدر
بالرواية والأناة من قارئ الأدب العلائى.

فاذا وقع بصرك على مثل قوله:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

فتبادر إلى ذهنك أن كلمة (مدوج) ثقيلة على السمع، وأن
التزمت والإغراب هما السر في التجائه إليها، وإنه كان جديرا
به أن يقول بدلها (متوج)، وما أليق هذه الصفة بالامير! وما
أخفها على السمع، وألطف مدخلها في القلب! فتريث قليلا،
وانظر إلى المعنى - بعد أن فتنك بهرج اللفظ - وخبرنى بعد
ذلك: «أيقابل عرى الفقير تاج الأمير؟ وقل لى بريك: كم تفقد
تلك الصورة الشعرية من الجمال إذا وضع هذا اللفظ بدل ذلك؟

إذن، فقد أراد أبو العلاء اللفظة الأولى، وقصد إليها قصدا،
ولو كان يتكلم نثرا، لأتى بها، ولم يرض بديلا. وما أروع تلك
الصورة الشعرية الجميلة التى تتمثلها فى هذا البيت الدقيق، إذ
ترى الشتاء زاحفا بقره ومطره وزمهريره، وترى فقيرا بائسا
يستقبل هذا الفصل القاسى عاريا، لا يجد مايدفئه أو يقيه غائلة

البرد، ثم ترى - إلى جانبه - أميرا متدثرا بلحاف فوقه لحاف، لا يكاد يشعر بألم البرد القارص أو يحس زمهريره .

وترى في البيت الآخر مجدودا، تكدست أمامه أقوات أمة بأسرها على حين تجد إلى جانبه مسكينا قد حرم قوت يومه .

حسبنا هذا المثل من أمثلة عدة، يفيدنا استقصاؤها، ولا يتسع الوقت لذكرها ولكن حذار أن يدخل في روعك - أو يدور بخلدك - لحظة واحدة - أننا ننزه أبا العلاء، وأنا نطلق القول إطلاقا، فنعصمه من كل خطأ، أو نزعم له شيئا من ذلك، إنما هو إنسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار.

ولكن كل مانقوله، هو أننا ألفنا منه الدقة والإحكام . وهو لم يعودنا الثرثرة والهديان . ولو وضعنا في البوتقة كل ما قدمه لنا من المعادن لألفينا جله ذهباً خالصاً، غير مختلط بنحاس، فإذا شذ ذلك شيء فهو الفكر الإنساني الذي لا يسلم صاحبه من عثار أو كبوة في أثناء تحليقه في سمواته العلاء والشعر كالشجر:

ركب فيه اللحاء والخشب الـ
ـيا بس والشوك بينه التمر
ونوجز فنقول:

إننا إذا عددنا نخبة المفكرين والفلاسفة الذين تركوا أوضح أثر في تاريخ الفكر الإنساني، والذين هم أبعد الناس عن

الاسفاف واللغو - فإن أبا العلاء بلا شك يكون فى أعلى ذروة
يجلس فيها أساطينهم وجبابرتهم .

وهذا كلام نؤكد للقارئ أننا نعنيه تماما، وأننا نقوله له
جادين، وأننا أبعد الناس عن المبالغة حين نقرره .

فليس يمتري أحد درس أبا العلاء حق دراسته فى أنه قد
خط للشعر العربى طريقا جديدا، فيه جدية فلسفية، وأنه قد
أودع لزومياته أسمى المبادئ الاجتماعية، وأرقى أساليب النقد
الصحيح، والسخرية الخفية اللاذعة والدعابة القاسية التى
تحوى الجد المر، بين ثناياها، والتى تكشف عن النفس
الإنسانية وعن الطبيعة الخالدة .

النقد الأدبى

شخصية (كامل كيلانى) تبدو فى طبيعته المتواضعة العالية
التي ترغب عن الصيال، أو الرد على ما يوجه إلى صاحبها
من نقد، وكان قد بدأ حياته بمقالات فى النقد عام ١٩٢٠
بامضاء (ك.ك.) ، أحس بعدها أنه تزعم الميدان وأحرز الشهرة .

فنفض يده من النقد وازدراه، إذ رآه عملا يوصل إلى
الشهرة دون عناء، وهو الحريص على أن يصل بالجهد والعرق
والسعى الموصول .

ويرى (كامل كيلانى) أن أعظم ما كان له من أثر هو نقده
لشوقى حين وجهه إلى كتابة المسرحية الشعرية . فلما كتبها
(شوقى) أحس الكيلانى بأن الخصومة بينهما قد انتهت، ومن
ثم صارا صديقين ارتبطت بينهما أواصر الود الصادق، والحب الأكيد.
والكيلانى يعرض علينا نماذج من النقد الأدبى الصميم فيما يلى:

١ - ابن الرومى كيف أغفله صاحب الأغانى

لو نطق الدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل

(أبو العلاء)

ألف أبو الفرج الأصفهانى كتاب الأغانى لغرض خاص،
هو إثبات مائة الصوت، التى اختيرت للرشيد، ثم جره ذلك
إلى الاستطراد، فذكر من الطرف والبدائع شيئا كثيرا، حتى
أصبح كتابه كنزا من كنوز الادب العربى لا مثيل له .

فإذا أغفل أبو الفرج الأصفهانى التنويه بشاعر فحل كابن
الرومى فهل نجد من يحتج له ؟ وأى دهشة تملكنا، بل أى
حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر فى هذه المجلدات
الضخمة التى تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة، فنرى مؤلفها
الذى أغفل ابن الرومى قد استطرد أكثر من ألف مرة إلى ذكر
من يستحق الذكر ومن لا يستحقه، والتنويه بشعراء - إن

أجللناهم مرة - نزهنا ابن الرومى أن يوضع معهم فى ميزان أو يقاس إليهم بمقياس ورأيناهم إلى جانبه أقزاما بجانب عملاق؟

وقد عنى أبو الفرج - فى غير كتابه (الاجانى) - بدواوين من يحبهم من الشعراء . فجمع ديوانى أبى تمام والبحترى ، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع - لا على الحروف - كما عنى بجمع ديوان أبى نواس!

وتعمد الإغفال ظاهر . فإن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومى فى كتابه (الاجانى) الا مرتين ، وكأنه لم يذكره إلا لیسى إليه ، بدلا من أن يشيد بذكره .

فقد ذكره فى موضع بمناسبة انتحاله بيتا من الشعر لابراهيم بن العباس (١) ، وذكره فى مكان آخر من الكتاب بمناسبة - نكبة سليمان بن وهب وإبنة (٢) ليظهر لنا مظهر الشامت . وكلا الموقفين لا يشرف صاحبه .

ففى الموقف الأول ، يوقفنا به سارقا منتحلا بيتا من الشعر . وفى الموقف الآخر يقدمه لنا هاجيا فى غير موقف الهجاء ، ليثبت - أبو الفرج - فى الصفحة نفسها - رثاء البحترى لسليمان

(١) ارجع إلى ج ٩ ص ٢٨ من كتاب الاجانى .

(٢) ارجع إلى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاجانى .

ابن وهب الذى جود فيه، كما يقول أبو الفرج - ثم يتبع ثناءه على البحتري إطراره إبراهيم بن العباس والاشادة بذكره .

فإذا لم يكن ذلك اغفالا فهو عندنا شر من الإغفال . وإذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن الرواية قد تعدد الاساءة إلى ابن الرومى فكيف يكون تعدد الاساءة لغير ذلك ؟

لم يكن ابن الرومى خاملا فى عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره فى هذه الموسوعة الضخمة .

وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملا . وهو وهم يفنده الواقع . فلم يكن ابن الرومى خاملا - لافى عصره ولا بعده ولكن الناس كانوا يكرهونه لإفحاشه فى الهجاء حتى لم يكدر يسلم من لسانه إنسان له خطر . وكان الهجاء سببا فى قتله .

فإذا قال قائل : «ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل ، وذكر كثيرا من أخباره وهو وابن الرومى متهوران بسلطة اللسان والإقذاع فى الهجاء ؟»

قلنا إن عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومى بقليل . وقد مات من أساء اليهم دعبل . وحققت الناس عليه . فلم يبق هنالك بأس من الإشادة بذكره والتنويه بفضله .

أما ابن الرومى فقد أساء إلى أعيان الدولة وكبار رجالها،
كما أساء إلى شيوخ الأدب وزعماء الشعر، ولم تزل إساءته -
إلى زمن أبى الفرج عالقة بالأذهان. وما زال بعض من أفحش
ابن الرومى فى هجائهم عائشا فى زمن أبى الفرج، وربما كان
من بينهم أقاربه وأصدقاؤه.

ولقد كان أبو الفرج من المتشيعين وكان ابن الرومى متهما
بالتشيع ولم تكن هذه الصلة شفيعا له عنده، ولا سببا يدعو
إلى التنويه بذكره.

٢ - هجاء البحترى والأخفش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا. وأفرط
فى شتمه. وكانت للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار
رجالها - حتى بعد موته - وقد رأينا أن أبا الفرج كان يحبه
ويشيد بذكره ويعنى بآثاره. ولا يتسع هذا المقام الضيق
للإسهاب فى ذلك وشرح الأسباب التى دعت إليها فلنجتزئ
بقوله فى هجائه من قصيدة:

قد قلت - إذ نحلوه الشعر - حاشى له

إن البروك به أولى من الخيب

وفيها يقول

وحسبه من حياء القوم أن يهبوا

له قفاه - إذا مامر مر - بالعصب (١)

ثم يقول:

الحظ أعمى، ولولا ذاك لم تره

للبحترى بلا عقل ولا أدب

٣ - أدبنا الرقيق:

بدأ (الكيلانى) حياته بابن الرومى - قبل المازنى والعقاد -
حيث حقق ديوانه.

وقيل له يوما ما: أكان شؤما عليك كما كان شؤما على
المازنى، فهيضنت ساقه، والعقاد، فدخل السجن؟

فقال: لقد كان شؤما على نفسه!

وكما أعد ديوان (ابن الرومى) أصلح ديوان ابن زيدون
الذى لم يكن مطبوعا، كما أنه أخرج فى سنة ١٩٢٣، كتابه
عن رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى.

(١) جماعات الناس.

فاذا قيل: إن كتابه عن (الاغنى العالمية) التى ترجمها إلى العربية شعرا وموسيقى، هو أعظم أعماله - وهو الرائد لهذا الفن - قيل: إن هنالك عملا أجل خطرا، لم يعرف عنه الناس شيئا بعد بالرغم من جلاله وخطره.

هذا العمل، يعتبر مفتاح شخصية كامل كيلانى الأصيلة، فالذين شهدوا «الكيلانى»، وهو يتصدر (صالونه) الأدبى ويدير الحديث بلباقته الفذة يلمحون هذه الخصلة من خصاله.

انه ما من فن، أو علم أو معنى يتحدث عنه الناس فى أدب من الآداب الا وجد له ضريبا فى اللغة العربية، وقد جمع عن هذه (المعركة المشتركة ألفا وثمانمائة صورة) وهو يقول:

إنها أبرع عملية فكرية فى الغرب بشهادة كبار النقاد، وقد أردت ايراد هذه المعانى، وما يقابلها فى الآداب العالمية، لأقنع الشباب بجلال أدبنا، وأضفت اليها خمسا وعشرين عملية فكرية من الادب العربى، لا ضريب لها فى الأدب الغربى، بجميع فنونه وألوانه.

وقد روى الاستاذ (كامل كيلانى) كيف بدأ هذا الاتجاه، أيام كان طالبا فى كلية الآداب، يستمع الى أستاذه (برسى وايت) عام ١٩١٨م.

وقد عرف فيه أستاذه ابتسامته، ذات المعنى، فقد كان يلاحظه. فاذا ابتسم قال له أستاذه «برسى وايت، هل لها مثيل بالعربية؟

وقد بدأ هذا الحوار عندما سأل أستاذه عن رأيه في قصة (هى أو عائشة) فقال: (تحت درجة الاحتقار).

وقال الكيلانى الطالب فى كلية الآداب:

(ابن الرومى) يقول فى هذا المعنى:

قومتہ بالشتم يهدى له فلم أجد قيمته تسوى
والىكن عرضا قيما، من المعانى المشتركة بين الأدبيين:
العربى، والغربى، ولنسمعه حيث يروى عن ذلك فيقول:

٤ - من المعانى المشتركة: مرساة السفينة

كان أستاذ الأدب الفرنسى يحاضرنا فى شعر (لامرتين). فلما عرض لقصيدة (البحيرة) طالت بنا وقفة الإعجاب حين تلا علينا المحاضر أول القصيدة الرائعة التى بدأها الشاعر المبدع بقوله:

هكذا نطل دائما مدفوعين إلى سواحل جديدة من الحياة فى
ليل الأبدية المظلم لارجع ولا عود.

فهل يتاح لنا أن نلقى مرساة سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن؟
وهل يقر قرارنا يوما واحدا؟

طالت وقفة الاعجاب بما وفق إليه الشاعر الملهم من خيال
بارع حين تمثل سفينة الحياة تندفع إلى الأمام في غير تريت
ولا توقف، منتقلة دائبة التنقل من شاطئ إلى شاطئ، متمنيا
لو أتاح له القدر الدائب وسيلة يقف بها سير الزمن ريثما يتمتع
بالبقاء مع من يحب ولو يوما واحدا.

كانت فكرة طريفة حقا، ولكنها لم تكن وقفا على خيال
الشاعر الفرنسي وحده .

دار بيننا حوار طويل نسيت أن أذكره، وبقي في ذهني
بعض ما أوردته حينئذ من روائع ما قد أبدع شعراؤنا من الصور
حين تحدثوا عن الزمن .

إن مرساة السفينة التي أبدعها خيال (لامرتين) ليقف بها
سير الزمن تذكرنا بالحبال التي أبدعها امرؤ القيس منذ خمسة
عشر قرنا في معلقته الخالدة، حين تمثل نجوم ليله الطويل،
مشدودة إلى جبل يذبل بتلك الحبال المتينة المحكمة الفتل، وقد
خيل إليه الضجر أن نجوم السماء ثبتت في أماكنها تثبيتا، وأن
الفلك قد كف عن الدوران، فصاح متبرما:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل!

والفرق بين الصورتين أن الشاعر العربي ضجر بطول الليل، فتمثل الزمن قد كف عن السير، بعد أن شدت نجوم ليله بالحبل.

وعلى العكس من ذلك أحس (لامرتين) أن ساعة البهجة توشك أن تفر من وجهه، فتمنى لو ربط سفينة الزمن بحبل متين، لتقف عن السير.

وقديما صرخ الشاعر العربي القديم (مالك بن الريب) حينما انتهت به رحلته الطويلة إلى اجتياز أشجار الغضا، ونزل عن ناقته ليستريح من عناء السير. فلدغته أفعى. فلما شعر بدنو أجله، ورأى السم يسرى في عروقه، أنشد قصيدته المبدعة، متمنيا لو طالت به الرحلة بين أشجار الغضا دون توقف، حتى لا ينتهى به الاستقرار إلى هذه الخاتمة قال:

قلبت الغضا لم يقطع الركب عرضنه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
وما أكثر من تمنى طول الزمن، وما أكثر من تمنى قصره!
وللشريف الرضى شكاية مزدوجة من طول الزمن وقصره
جميعا، فهو يقول:

أشكو الليالى غير معتبة إما من الطول أو من القصر
تطول فى هجرهم وتقصر فى الوجد بل فلا تلتقى على قدر
ياليلة كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر
وللبحتى لفته بارعة . فهو لا يقنع بوقوف الزمن يوما
واحدا ، كما قنع (لامرتين) فى قصيدة البحيرة - بل تشتد به
الرغبة فى استعادة ماسلف من الأزمان . فهو يقول :

ليت أن الأيام قام عليها من اذا مامضى زمان يعيده
وقريب من هذا قول شيخ المعرة :

فليت الفتى كالبدرددد عمره يعود هلالا كلما فنى الشهر
وقوله :

وأطربنى الزمان غداة ولى فليت سنيه صوت يستعاد
وهذا (ابن الفارض) يشارك (لامرتين) فى أمنيته فيود لو
وقف الزمن عن سيره ، ليمتع بما هو غارق فيه من بهجة فيقول :

ياليل طل ، يانوم زل ياصبح قف لا تطلع
ويصف المعرى شعور المحب ، يرجو أن يطول الليل قليلا ،
ولو بذل فى ذلك سواد القلب والبصر ، فيقول :

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

هـ - أقل من أن يحتقر

قال كامل كيلانى:

كانت إحدى الصحف اليومية تنشر قصصا طويلة فى أعدادها المتتابعة لأحد كتاب الغرب، وكان أكثر القراء شديدي الإعجاب بذلك القاص.

وفى يوم ما، خطر لأحد (الزملاء) من الطلاب أن يعرف رأى أستاذ الادب الإنجليزى فى ذلك الكاتب القصصى، فإن الجواب مفاجأة لسامعيه.

فلم أتمالك أن أبتسم. فسألنى الأستاذ: ما الذى يدعوك إلى الابتسام!

فقلت: أعجبنى طرافة الجواب، فابتسمت.

فقال الأستاذ «ثم ماذا؟»

قلت: وذكرت قول (ابن الرومى) فى مثل هذا الكاتب:

قومت به بالشتم يهدى له فلم أجد قيمته تسوى
وقفز إلى خاطرى قول (دعبل):

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك، إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقول آخر:

نجا بك عرضك منجى الذباب حمته قذارته أن ينالا

وقول (أبى نواس) فى دعى تعرض له بالشتم:

ما أنت بالحر فيلحى، ولا بالعبد نستعبه بالعصا

النقاد وكامل كيلانى؛

عاش (كامل كيلانى) حياته فكرة خصبة متنوعة، وكانت آثاره الفكرية مع دقتها موضوع التقدير والنقد والجدل، وكان النقاد فى هذه الفترة يواجهون الآثار الادبية التى تصدر بأقلام مستعدة للنزال والعراك.

وقال الكيلانى: (إن شعارى فى الأدب هو أنه ليس من حقى أن أمنع الناقد من الكلام، ولكن من حقى ألا أصغى إليه).

أصدر (كامل كيلانى) فى فترة عام ١٩٢٨ م إلى عام ١٩٤٦ م عددا كبيرا من المؤلفات تناول الكتاب منها بالنقد هذه المجموعة.

مصارع الخلفاء - مختار القصص - روائع من قصص الغرب - ملوك الطوائف - فن الكتابة - حديقة أبى العلاء - رسالة الغفران - ديوان ابن الرومى - ديوان ابن زيدون.

وإننا لو نظرنا إلى اختلاف نظريات النقاد والمؤلف وجدناها في الغالب، اختلافًا لفظيًا، لا يمس الفكرة، ولا الجوهر بأى مساس.

وكان الكيلانى بجانب ذلك، يؤمن بالعمل الإيجابى للبناء وحده فكان يصرف وقته كله فى الانتاج. ثم يدفع إلى المطبعة بكتبه الواحد بعد الآخر ويدعها تحيا، كأنها شخوص حقيقية. ولذلك نجده لا يهتم بالنقد، قدر اهتمامه بالتأليف والاخراج اللذين عنى بهما، وتفانى من أجلهما.

وكان يؤمن بالحكمة القائلة:

(خير العمل أدومه وإن قل).

ويرى أن (أبا العلاء) قد أجاد فى بيته الذى يقول فيه:

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

تأديب التاريخ

بدأ (كامل كيلانى) حياته الأدبية وفق أسلوب يوحى بأن مكانه الطبيعى إنما هو بين صفوف الأدباء.

وكان اتجاهه إلى التاريخ أغلب، إذ كتب عن: (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الأعيان).

ثم اتصل بالأدب الأندلسي، واتجه بعد ذلك - بعنف إلى
(المعري) حيث عاش معه طويلا، وتأثر به، حتى غدا رفيقه
في كل لحظات حياته.

ولكن مع كل ذلك اتجه وجهة ثقافية عالية، إذ قام بدور هام
من أجل الانتفاع بالتراث الإسلامي والعربي عن طريق الفن
القصصي. فكان دوره إزاء ذلك هو تأديب التاريخ واللغة،
فجعل من التاريخ واللغة أدبا مستساغا، عن طريق الاقصوصة
الجميلة، والمثل العربي الأصيل وهانحن أولاء نعرض نماذج
لذلك، فنراه يقول:

الوعظ الكاذب

قال الكيلاني:

قال لي ولدي مصطفى يوما ما، وعلى وجهه أمارات
الدهشة والعجب:

«إنك توصيني يا أباي بالصدق!»

قلت نعم!

قال: «وتنهاني عن الكذب».

قلت نعم!

قال: «كذلك تفعل المعلمة».

قلت: «حسن.. فماذا حدث؟»

قال:

«حدث أن معلمتى - التى توصينى بالصدق، وتمدحه لى وتنهانى عن الكذب، وتبغضنى فيه - قد كذبت».

قلت:

وكيف كذبت يا مصطفى؟».

قال:

«إنها ضربتنى، فشكوتها إليك، فلما سألتها أنكرت».

فما ترون أيها السادة؟

إذا كان هذا الطفل - وهو لم يتعد السادسة من سنى حياته - قد فطن إلى التناقض بين قول المدرسة، وفعلها، وأدرك أنها تأمر بما لا تأمر به نفسها، أفتروننى قد بالغت إذ قلت:

إن أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل إدراكا وفهما لما يقع من التناقض بين أقوال وعاظهم، ومرشديهم، وأفعالهم؟

الحق أن العامة - مهما بلغ بهم الجهل - لن يكونوا أقل انتقاداً
لوعاظهم من الأطفال .

ولست أدري كيف يأمرنا الواعظ بالصدق ويكذب ؟

وكيف يأمرنا بترك الحلف ويحلف، كذلك الذي يقول:
«والله ما حلفت صادقاً ولا كاذباً، أو كذلك الذي أراد ألا يبوح
بحب معشوقته فباح بها في قوله:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت على موثقا وعهودا
وكيف يأمرنا الواعظ بحسن المعاملة، وهو نفسه أسوأ مثل للمعاملة ؟.

وكيف تمتلئ قلوبنا خشية من واعظ منافق، يأمر بما
لا ياتمر به، ويقرر ما لا يفعل، وكيف نخلد بثقتنا إلى رجل:

طلب الحسائر وارتقى في منبر	يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامه	أضحى يمثل في النفوس ذهولها

نعم، كيف نصغى إلى واعظ وصفه أبو العلاء، وأبدع في
وصفه فقال:

رويدك قد غررت - وأنت ندب	بصاحب حيلة - يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحا	ويشربها - على عمد - مساء
إذا فعل الفتى ماعنه ينهى	فمن جهتين - لا جهة - أساء

فإن كان بعض الوعاظ يحسب أن مايقترفه سرا مستورا
غير معروف ولا ذائع، فما أشد ضلالتة ووهمه!

قال كاتب إنجليزى:

إذا دار بخلدك - لحظة واحدة - أن أسرارك التى تحرص
عليها، وتمعن فى تكتمها لم يعرفها الناس جميعا، فقد خدعت
نفسك خداعا بينا.

وقال الشاعر العربى:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس - تعلم
أخلاق الصحابة

لقد أفاد الناس من أخلاق النبى ﷺ وأعماله، أضعاف ما
أفادوا من أقواله ومواعظه.

كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أئمة للأخلاق
الفاضلة. فأفاد الناس من أفعالهم أضعاف ما أفادوا من أقوالهم.
ألا ترون مثلا إلى عمر بن الخطاب، يجلد ولده - عقابا له -
ولا يتهاون فى إقامة الحد عليه؟

ثم ألا ترون إليه، وهو يعنف ابن العاص بقولته الحكيمة المأثورة:
(متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

ألا ترون إليه تخطئه امرأة، فيعترف لها بالغلبة ويذعن
للحق إذعانا ويقول قولته المشهورة:

(أخطأ عمر، وأصاببت امرأة؟)

وليس هذا الا مثلا من أمثلة عدة يعيننا أن نتقصاها.

ألا ترون إلى (كاميل فلا ماريون) مثلا كيف عاقب نفسه بغرامة
- وقد كان قاضيا - فأصدر على نفسه حكما، كما يصدره
على عامة الناس؟

ألم تسمعوا قصة القاضي الذي أهانه ابن مليكه - وهو في
منصة القضاء فزج به في السجن، فلما علم الملك بذلك فرح
أشد الفرح، وقال:

(الحمد لله الذي جعل في بلادى قضاة يقيمون العدل حتى
على ولدى نفسه).

موقعة أحد - عاقبة المخالفة؛

كان النصر محققا للمسلمين في بداية الموقعة.

فلما خالفوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وانتقلوا من
مواضعهم كر عليهم المشركون، وقتلوا منهم عددا كبيرا، فيهم
حمزة عم النبي ﷺ، واستطاع العدو أن يخلص إلى النبي،
فيرميه بالحجارة.

فأصيبت ربا عيته، وشج وجهه، وكلمت شفتاه، ودخلت
حلقتان من حلق المغفر في وجنته. وسقط في إحدى الحفر
التي حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون.

ويذا تتبين لنا عاقبة المخالفة.

وفاء الصحابة

على أنه في موقعة أحد السالفة الذكر، يتجلى لنا مثل عال
من أمثلة الاخلاص، والتفاني في الوفاء. اذ يقبل الصحابة
على النبي عليه الصلاة والسلام مستبسلين يقدونه بأرواحهم.
يأخذه على بيده.

ويرفعه طلحة بن عبيد الله.

ويحيط به جماعة من الانصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم.
وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة، فلا تقل عن شجاعة
(جان دارك) التي لا يكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسي من
كتب التاريخ، والتي ملأوا الدنيا اعجابا بها.

تنحاز (نسبية بنت كعب) إلى النبي ﷺ، وتتفاني في الذود
عنه، وكانت تسقى في أول النهار. فلما رأت هزيمة المسلمين
أسرعت إلى النبي تفديه بنفسها، ضاربة بسيفها مرة، ورامية
عن قوسها أخرى، حتى أثخنها الجروح!

فضل الصبر (صبر الصحابة)

كان النبي عليه الصلاة والسلام، يذكر يوماً ما قد لاقى من قومه من الجهد والشدة قال:

«لقد مكثت أياماً، وصاحبي هذا (يشير إلى أبي بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام إلا البرير (ثمر الأراك أو السواك) في شعب الجبال».

وكان عتبة بن غزوان يقول في وصف الشدة التي كانوا عليها بمكة:

(لقد مكثنا زماناً، مالنا من طعام إلا ورق البشام. أكلناه حتى تقرحت أشداقنا. ولقد وجدت يوماً ثمرة، فجعلتها بيني وبين سعد، وما منا اليوم إلا وهو أمير على كورة).

وكانوا يقولون فيمن وجد ثمرة فقسمها بينه وبين صاحبه: (إن أسعد الرجلين من حصلت النواة في قسمه، يلوكها طول يومه وليلته، من عدم القوت).

الاعتداد بالنفس؛

جاء ﷺ يوماً، ليدخل الكعبة.

فدفعه عثمان بن طلحة العبدري، فقال:

(لا تفعل يا عثمان . فكأنك ومفتاحها بيدي أضعه حيث

شئت)

فقال: (لقد ذلت قريش وقلت)

فقال: (بل كثرت وعزت)

وانظروا إلى حوارہ ﷺ، مع قريش، حين قالت له تفاخره:

(هل أتباعك من هؤلاء الموالى (كبلال، وعمار، وصهيب)

خير من قصي بن كلاب، وعبد مناف، وهاشم، وعبد شمس؟

فقال: نعم: والله لو كانوا قليلا ليكثرن، ولئن كانوا ضعفاء

ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم، ويقتدى، فيقال:

(هذا قول فلان)

(وذكر فلان)

فلا تفاخروني بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية.

اتبعوني، أجعلكم أنسابا.

والذي نفسي بيده، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر.

فقال له عمه أبوطالب:

«إبق على وعلى نفسك».

فظن النبي أنه خاذله، فقال: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر حتى يهضره الله أو أهلك فيه، ما تركته) ثم استعبر باكيا، ثم قام، فلما ولي ناداه: «أقبل يا ابن أخي، فأقبل». فقال:

«إذهب، وقل ماشئت، فوالله لا أسلمتك لسوء أبدا».

تدريس النحو والقواعد بالقصص.

لقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصي حدا عجيبا: أذكر لكم - على سبيل المثال - أن مدرسا فاضلا من مدرسي العربية كان يدرس لنا - في مدرسة أم عباس الابتدائية. وكانت نتائجه أبهر النتائج، وتلاميذه أقوى التلاميذ. وكان السرف في ذلك، هو إسرافه في حب القصص وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصي حدا مدهشا جعله يشرح لنا - في قواعد اللغة العربية - «أثر كان وأخواتها وأثر إن وأخواتها، بأسلوب قصصي جذاب يحبب في النحو أزهد الناس في النحو.

كان يشرح لنا أثر كان وأخواتها في معموليها، وأثر أن وأخواتها، كذلك يقول:

المبتدأ والخبر، أخوان. وهما دائما رافعا الرأس. ففي ذات يوم بينما هما جالسان في بيتهما إذ سمعا قرعا بالباب. فأسرعا إلى زائرهما، ففتحا له الباب، ورحبا به، وأرادا أن يقدموا له شيئا من الحفاوة، بعد أن سألاه عن اسمه، فقال لهم «اسمى كان».

فقالا لها:

«أهلا وسهلا ومرحبا، ماذا نستطيع أن نقدم لك من قرى وإكرام؟»

ف قالت:

«أريد أن أصاحبكما، وأن تترك صحبتى أثرا ظاهرا أكون معروفة به من بين رفاقكما جميعا».

فقالا:

«وأى أثر تريدان؟»

ف قالت:

«أن أنصب أحدكما،

فلا تكاد تتم قولها، حتى يتقدم إليها الخبر، مرحبا بشرطها هذا، راضيا بحكمها».

وإنهم لكذلك اذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب. فإذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيفان، فيسألونهم:

«من أنتم؟» فيقولون لهم: «نحن أخوات كان،

وبعد أخذ ورد يظفرون بمثل ماظفرت به كان.

فإذا جاء اليوم التالى جاءت «إن، زائرة. وطلبت إليهما أن يمنحاهما ميزة، كما منحنا كان بالأمس.

فيتقدم المبتدأ فى هذه المرة مرحبا بشرطها. ولايكاد يفعل حتى تأتى جميع أخوات إن طالبة مثل طلبها فيظفرن به.

هكذا كان يسلك ذلك المدرس الظريف، فى شرح النحو وتحبيبه إلى نفوس الطلبة. وهى طريقة ظريفة كانت تحبب الطلبة فى دروسهم وترغبهم فى الافادة من علمه.

ثم ذكر الكيلانى أمثلة أخرى كثيرة، وختمها بقوله:

فإذا أردت مثل العقوق، ومثل الوفاء، فأمامك حكاية (أبى صير وأبى قير) وهى من (ألف ليلة وليلة).

وإذا أردت مثل القضاء، والقدر، فأمامك حكاية (الملك العجيب) وهى من (ألف ليلة وليلة) أيضا.

وإذا أردت مثلاً على أن لكل مقام مقالاً فاقراً حكاية العم
«عمارة»، وهي مشهورة. لا حاجة بنا لذكرها.

وجملة القول أن القصص وضرب الأمثلة محببان إلى
نفوس الكبار والصغار معاً، وهما من خير الوسائل التي يلجأ
إليها المتكلم، لتقرير فكره، أو لتعزيز مبدأ في أذهان سامعيه.

موازنة بين جحا وأبي العلاء وابن الرومي

الأسلوب الجحوى:

لقد كان الأسلوب الجحوى وما زال مثلاً رائعاً يفيض من
إشراقه ومرحه على حقائق الحياة الحرة، فيكسوها من ألوانه
الزاهية جدة وإشراقاً.

والأسلوب الجحوى الباسم، يكاد يقابل الأسلوب العلائى
العابس حتى ليبلغ جحا - أحياناً - فى سبر أغوار الحياة المرحية
الباسمة، ما يبلغه المعرى بسخريته العابثة القاتمة.

تقسيم الأرزاق

فنحن إذا استمعنا إلى صرخة (ابن الرومي) وحيرته فى
تقسيم الأرزاق، وما فيها من تفاوت يحار فى تعليله اللب،
وينقطع منه نياط القلب، حين يقول:

لا تعجبين لمرزوق به هوج حظا تخطى أصيل الرأي أطرافا
فخالق الناس أعراء بلا وير كاسى البهائم أوبارا وأصوافا
أو يقول:

إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلبا أحاله إنسان
يفعل الله ما يشاء كما شا ء متى شاء كائنا ما كانا

إلى آخر ما يخر به غلاة الساخطين الناقمين من أساليب
تكاد لفرط عنفها تلتهب التهاوبا، وتكاد لغليانها تقذف بالحمم،
وترمى بشواظ نيران الفكر، ويكاد أهاب قائلها يتقطع من الغيظ والنقمة.

ثم رحنا نسمع إلى (جحا)، لتتعرف كيف يعبر عن هذه
المعاني الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته
أعنف معاني المرارة والجد، رأينا العجب العاجب:

رأينا فيلسوفنا الساخر يحتكم إليه أربعة من عارفيه، ليقسم
بينهم (زكوية) مملوءة بلحا:

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المعاني الملتهبة
التي عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق؟

يقبل عليهم متبالها ويسألهم متغابيا: أى قسمة تريدون:
قسمتى أم قسمة الله؟

فيجيئوا على الفور: (بل قسمة الله يا جحا) .

فيعطى أحدهم بلحات خمسا أو ستا .

ويعطى الثانى حفتين أو ثلاثا .

ثم يعطى الثالث كل ما فى الغرارة من بلح .

ثم يحرم الرابع ، فلا يعطيه شيئا !

ويتركه يضرب كفا على كف من فرط الحيرة والدهشة .

فإذا سأله : أى قسمة هذه يا جحا ؟

أجاب فى تغافل الساخر العميق :

أليست هذه قسمة الله ؟ أليس يعطى واحدا دراهم معدودة ،

ويعطى الثانى المئات من الدنانير ، ويعطى الثالث من خزائن

الأرض وكنوزها ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولى القوة .

ثم يترك الرابع ، فلا يعطيه شيئا ؟

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح ، يترجم

عن قول الكثيرين من كبار الساخطين ؟

أليس فى هذا لون من قول المعرى :

كذلك مجرى الرزق : واد . به ندى

وواد. به فيض، وآخر ذو قفر؟

وقوله:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

وقول الحلاج:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا

إلى آخر ماقاله المبدعون الساخطون.

ولقد أكثر الشعراء، وافتنوا فى وصف سوء الحظ، ولكن قل
من بلغ منهم مبلغ صاحبنا فى التعبير بالدعابة التالية:

قالوا إن النحس لازمه أياما، فلم يكديهم بشراء قطعة من
الصابون ليغسل ثيابه بها حتى تتلبد السماء بالغيوم وتتكاثف
السحب، وتدوى الرعود وتبرق البروق. وذهب ذات يوم إلى
بائع الصابون ليدفع له ديناً اقترضه منه، ولم يبلغ دكان
صاحبه ويهم بإعطائه دينه حتى غامت السماء، وتكاثفت
السحب ودوى الرعد، وأبرق البرق.

فحملق إلى السماء متظاهرا بالدهشة وهو يقول: عفوك
اللهم، فما أردت شراء صابون لغسل ثيابي، ولكني أردت قضاء
ديني لبائع الصابون!

فائدة المصائب

وإذا قال (ابن الرومي):

ومحال أن يسعد السعداء الد
هر الا بشقوة الأشقياء
وقال المتنبي:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد
وقال أبو العلاء:

غنى زيد يكون لفقر عمرو
وأحكام الحوادث لا يقسسه
وحجر في الحقيقة مثل حجر
ولكن الحروف به عكسه

وقال:

وسخط الظباء بما نالها
تولد منه رضا الحابل

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجوى الرائع:

يخبرنا الرواة أن (جحا) سافر ذات مرة لزيارة بنتيه، وكان
زوج أولاهما زارعا. وزوج الأخرى فخاريا: يصنع الفخار ويبيعه.

فخرج على الأولى يسألها:

كيف أنت؟

فأجابته: بخير - يا أبتاه - إذا أغاثنا الله في هذا العام بما نأمله من الغيث. فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطارا غزيرة تحيي موات أرضنا، وتجلب لنا ما نرجوه من رخاء وهناءة.

ثم عرج على الأخرى، ولما سألها عن حالها أجابته:

نحن بخير يا أبتاه - إذا انقطع الغيث عنا في هذا العام، فادع لنا الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البوار والتلف ما عندنا من الأنية والتحف، التي جهدنا في صنعها من الفخار والخزف. فخرج صاحبنا وهو لا يدرى بأى الدعوتين يبتهل إلى الله؟

فمصيبة هذه، فائدة تلك، واستجابة إحدى الدعوتين - كما ترى - شقاء إحدى بنتيه وهناءة لأخرى. ولا مناص من ذلك على أى الحالين؟

وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبي الذى أسلفناه، حيث قال:

بذا قصت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ثم يخبرنا الرواة أيضا أن لصا سرق من جحا عشرين دينارا.

فذهب جنا إلى المسجد ضارعا إلى الله أن يعيدها إليه .
وأراد الله سبحانه أن يلهم تاجرا من أهل القرية كادت
العواصف تغرق سفينته أن ينذر لذلكم الرجل الصالح عشرين
دينارا اذا كتب الله السلامة لمركبه .

فلما ظفر التاجر بالسلامة ، وفي صاحبنا بنذره بعد أن قص
عليه قصته . فأطرق (جحا) برأسه إلى الأرض ثم قال ، بعد
تأمل عميق :

(تباركت يارب في علاك)

لو أننى سلفت أحدا هذا المبلغ لأعاده فى هدوء ، دون أن
يخطر على باله أن يزعج أحدا أو يعرض حياته للتلف ليرد
مبلغى إلى .

وهو - كما ترى - تعبير جحوى بارع ينطوى - فى فكاهته -
على أقصى الجد المرير .

وفى هذا يقول فى بعض خواطره :

وهكذا ترك لى (أبو مرة ظالم بن الحارث) زاده كله ،
فرحت أكل من طعامه هنيئا مريئا بعد أن هيات لى كوارثه ،
ونكباته ، ما لم تهينه لى مباهجه ومسراته . إلى أن يقول :

وكم سعد سعيد بشقوة شقى . وكم للقدر من تصريف خفى .

وغرق مركب بمن فيه، ولم ينج أحد من راكبيه، فهلك
المسافرون والريان، وراحوا زادا للسماك والحيتان!
تم هذا كله . فكان ماذا؟ .

قامت المنادب فى ديار الغرقى والمناحات، وأعلنت الأفراح
فى قاع البحر وعمت المباهج والمسرات!
ولولا غرق المركب بمن فيه من الناس، ما تم للسماك
مايطمح إليه من بشر وايناس، وما كانت الولائم والأعراس .
وكم للقدر من عجائب وفنون . ولله فى خلقه شئون! .

موازنة بين الحقيقة والخيال

الخيال كالمجهر يكشف من دقائق الفكرة وخفاياها
وأسرارها، كما يكشف المجهر دقائق الذرة، وخواص تركيبها .
والخيال هو إحدى وسائل الشاعر والكاتب والقاص، تلك
التي يستعين بها على توضيح ماغمض من الحقائق، وتبيان
ما استتر واحتجب من المعانى الدقيقة والخواج النفسية الخفية .
وكما يلجأ المصور إلى التصوير الكاريكاتيرى، ليظهر
على جوانب خفية لا يصل إلى توضيحها التصوير العادى،
وكما يلجأ الحاسبون إلى الرموز الجبرية ليصلوا بها إلى حقائق
عددية، لا سبيل إلى استخراجها بغير هذه الرموز، فكذلك يلجأ

صاحب القصة والمثل والأسطورة إلى أشباه هذه الرموز
الجبرية ليتوصلوا بها إلى حقائق ثابتة لا سبيل إلى إدراكها
بغير هذا الطريق.

بحوث لغوية

صور جديدة من الأدب العربي .

مناظرة الكسائي وسيبويه

مسألة العقرب والزئبار.

كان من أثر المناظرة التي قامت بين الهمداني
و(الخوارزمي) أن الخوارزمي مات بعد قليل من الزمن، ولم
تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة.

وكان من أثر المناظرة التي قامت بين الكسائي وسيبويه أن
سيبويه مات كمداً، وهو في ريعان شبابه وجن نشاطه، كما
يقولون - ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة.

وليست الطرق التي لجأ إليها الكسائي بأقل قسوة من تلك
الطرق التي سلكها (الهمداني) للتغلب على الخوارزمي
والانتصار عليه.

على أن الهمداني، قد أعد عدته وهياً لنفسه كل أسباب
الانتصار والفوز على خصمه. وزج به في مجلس كله خصومة

ولدد، وأقول في هذه المناظرة: إن الكسائي لم يقصر في اعداد كل الوسائل لهدم سيبويه، ولم يتعفف عن شئ في سبيل الانتصار عليه. وإذا كان الهمداني قد لجأ إلى تملق شهود المناظرة لينصروه على الخوارزمي، واشترى ذممهم بهذه الحيلة فإن الكسائي قد لجأ أيضا إلى نفوذه وجاहे وماله، واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على سيبويه.

ولئن شكونا في المناظرة السابقة قلة المصادر التي نرجع إليها في تحقيقها ولم نجد غير رواية (الهمداني) نفسه - وهي رواية خصم عن خصمه - إن ما نشكوه في هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها، وتباين روايتها، وأثر التعصب فيها وتعتمد التشويه.

على أن هذه الروايات، على الرغم من اضطراب بعضها واختلافه في التفاصيل، متفقة في الأساس والجوهر. فهي - من أية ناحية رأيت، وبأية رواية أخذت - تدل على أن سيبويه قد ظلم، وأن الحق كان في جانبه.

وقد أجمع علماء النحو واللغة - في زمن سيبويه وبعد زمنه - على أن الصواب ما قال. وأن الكسائي كان في الجانب الخاطئ. ولم يشذ عن هذا الاجتماع الاشيعة الكسائي،

والطامعون فى ماله أو جاهه، والمحسوبون عليه، وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية.

وليست هذه المناظرة على الحقيقة - إن صح أن نسميها مناظرة - إلا نضالا بين مذهبين، وحرىا بين مدرستين، مدرسة الكوفيين، ومدرسة البصريين، ممثلتين فى شخص الكسائى زعيم علماء النحو فى الكوفة وشيخ مدينة الاسلام، وسيبويه زعيم علماء النحو فى البصرة وتلميذ الخليل بن احمد ابن سيد أهل الأدب - كما كانوا يلقبونه - وقد لعبت الأهواء من سياسية وغيرها فى تغليب رأى الكسائى على رأى سيبويه (١).

على أن فضل سيبويه ذائع - على الرغم من انتصار الكسائى عليه - وكتابه الذى ألفه فى النحو لم تبطل جدته إلى اليوم. وما زال كتاب نحو وأدب معا. وأسلوبه فى أعلى طبقات البلاغة. وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه (هل ركبت البحر؟) تعظيما لشأنه.

وكان الزجاج يقول: إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة.

(١) كان العباسيون يقرئون اليهم الكوفيين لأنهم بصروهم فى دعوتهم لقيام دولتهم، وكان لهذا الاعتبار أكبر الأثر فى اتصالهم بالخلفاء.

كيف كانت المناظرة؟

لم يكد يرد سيبويه العراق، حتى شعر الكسائي أن مركزه العلمي في خطر، وأن منافسا جديدا يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة.

قالوا: «وشق أمره على الكسائي فأتى جعفرًا ويحيى ابني برمك وقال: «أنا وليكما وصاحبكما. وهذا الرجل إنما قدم إلى العراق ليذهب محلي».

قالا: فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما.

وهكذا دبّرت المؤامرة في بيت البرامكة لهدم سيبويه. فلما حان الموعد حضر سيبويه. وجاء الكسائي ومعه الفراء والأحمر وغيرهما من أصحابه. فسأله الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبه عنها حتى قال له: «أخطأت، وسأله عن ثانية، فأجابه، فقال له «أخطأت».

ثم سأله عن الثالثة، وقال له: «أخطأت».

فقال له سيبويه: (هذا سوء أدب منك).

فقال الفراء لصاحبه: «يظهر أن في هذا الرجل عجلة. وحدة، وسأله الأحمر عن مسائل عدة، فكان يخطئه في كل جواب يفوه به».

قالوا: «فلم ير سيبويه إلا أن يكف عن مناقشتهما».

وهنا يقول له الكسائي - ولعلك تلمح في جملته معنى التحقير والاستصغار «يابصرى» كيف تقول:

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبار. فإذا هو هـى، أو
فإذا هو إياها.

قال: «أقول، فإذا هو هـى».

فأقبل عليه الجمع فقالوا: أخطأت ولحنت».

وفى هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه.

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك: «هذا موضوع مشكل
حتى يحكم بينكم» فيقول الكسائي:

«هؤلاء الأعراب على الباب».

قالوا: «فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه».

فقال لهم الكسائي: كيف تقولون: «قد كنت أحسب أن
العقرب أشد لسعة من الزنبار، فإذا هو إياها أو هو هـى».

فقالت طائفة: فإذا هو هـى

وقالت أخرى: فإذا هو إياها

فقال الكسائي: «هذا خلاف ماتقول يا بصرى!»

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبويه - وهو الغريب المستوحش فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائي وشيعته: «قد تسمع أيها الرجل!» .

فلا يكاد سيبويه يسمع هذه الجملة حتى يستكين، ويسرع الكسائي إلى يحيى، فيقول له، حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت، وأن الغلبة قد تمت له: «أصلح الله الوزير، لقد وفد عليك من بلده مؤملا، فإن رأيت ألا ترده خائبا.

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم.

وكأنما ألف الكسائي أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى إلى الانفراد بها عند الخليفة. ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التي سببها له.

على أن الكسائي طالما اشترى بالمال الألسن والذمم:

ألا ترى إلى الأخفش يذهب إلى الكسائي غاضبا - بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معه - فيسأل الكسائي وهو بين تلاميذه ويخطئه في كل جواب يقوله، فيهم تلاميذ الكسائي بضربه فيمنعهم من ذلك، خوفا من ذبوع أمره. ويقبل عليه

فيعانقه متحبيبا إليه، ويعهد إليه بتعليم أولاده، ويرشوه بالمال،
فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه؟

الفكاهة الجحوية في الأدب الشعبي

يقول: (كامل كيلانى)

الفاكهة ثمرة الأرض. كما أن الفكاهة ثمرة العقل. وقد
اتخذت كل أمة فى كل عصر ومصر، شخصا من الشخص
الجحوية الباسمة رمزا لفكاهاتها، تسند إليه كل طريف من
فنون دعابتها. فكثرت الشخص (الجحوية) لذلك وتعددت.
فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان.

وقد عرض القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية،
وفصلوا منها أنماطا فكرية، ألبسوها عرائس أفكارهم، وأودعوها
نفائس توجيهااتهم وآرائهم. فلم تلبث على مر الأزمان
واختلاف الأمم أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها
كما يتشكل الماء بلون الاناء الذى يستودعه.

وأصبح الرمز الجحوى - على توالى العصور - أشبه بالرمز
الجبرى يختلف مدلوله فى كل مناسبة عما سبقته.

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما
لا يطاق وطالما استعاذ بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة
فى كسب قضاياهم.

وربما أغنت النكتة العابرة الملهمة. ينطق بها الفكه
الموهوب عن المقالات المستفيضة.

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته أدق الخفايا. فأرى
على الغاية وأى فكاهاة أبرع من فكاهاات (أبى الغصن) (جحا)
العربى، حين أذاع أنه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم، من
فوق مئذنة مسجد الكوفة. حتى إذا حان الموعد وتجمع الناس
من كل مكان، وضاق بجموعهم الميدان، أطل عليهم (جحا)
من أعلى المئذنة، ونظر إليهم ساخرا من بلاهتهم، ومد ذراعيه
ملوحا بهما فى الهواء. وحرك يديه مرة بعد أخرى، كأنما
يتهيأ للطيران. وقد خيل إلى النظارة أنه جاد فى محاولته.

فلما طال بهم الانتظار، التفت إليهم ساخرا، وقال:

(كنت أظن أن جحا هو وحده المنفرد بالجنون فى هذا البلد.
فإذا كل من أرى أجن منه. خبرونى أيها العقلاء: كيف صدقتم
أن (جحا) قادر على أن يطير بغير جناحين؟

وكيف يصح فى الأذهان أنى على إظهار معجزة قدير

وكيف يصدق العقلاء زعمى ولست بطائر أنى أطيّر

وأى سخرية أبرع من سخريته من والى الكوفة حين بدأ

شكواه قائلا:

إن لمولاي الوالى - فيما أعلم - ثورا أحمر.

- صدقت يا أبا الغصن، فما باله؟

- نطح بقرتى البيضاء، فشق بطنها وأخرج أمعاءها وقتلها على الفور.

- وما شأن الوالى بذلك؟ وأى سلطان لى على الحيوان؟
أتريد أن أعاقب الثور على فعلته؟

ألا تعلم أن دم الحيوان جبار^(١)؟

- صبرا ياسيدى، وعفوا، لقد دفعتنى العجلة إلى رواية
القصة معكوسة:

- ويحك! فماذا كنت قائلًا؟

- أردت أن أقول: إن بقرتى البيضاء هى التى نطحت ثور
مولاي الوالى فقتلته.

- ويلك! لقد تغير وجه المسألة الآن، فأعد على القصة،
لأرى فيها رأى من جديد!

وأى قارئ فكاهات هذا الساخر المبدع لا يعجب بتهكمه
البارع حين سأله جاره (سالم بن دينار) أن يعيره حماره،
فاستمهله (جحا) ليثما يستشير حماره فى ذلك.

(١) جبار: هدر.

ثم عاد إليه متظاهرا بالأسف!!

- ماذا قال الحمار؟

- رفض مصاحبتك!

لماذا؟

- لأنك - فيما تقول - لم تجزه على خدمته بأكثر من

ضربات على ظهره ولعنات لصاحبه!

أليست هذه الدعابة أروع وأعمق من قول زهير بن أبي

سلمى، في معلقته الخالدة:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم!

وما ينبغي أن ننسى إجابته لبعض الحمقى حين تهدد

(جحا) أن يقتله إذا عجز عن إجابته عن أربعين سؤالاً مختلفاً

بجواب واحد.

فأنصت إليه جحا، حتى إذا فرغ من أسئلته، قال له

متظاهرا بالجد:

- أتريد جواباً واحداً عنها جميعاً؟

- لا أريد غير ذلك.

- لا أدري:

فتكون هذه الكلمة الحكيمة جوابا شافيا لمسائله الأربعين،
يخلصه من بطش سيد المجانين!

وما أحكم قضاءه حين يتقدم إليه مختصمان، يدعى
أحدهما على صاحبه أنه أكل خبزه على رائحة شوائه، ويطالبه
بثمن الشواء الذي لم يأكله.

فيسأله (جحا): وكم ثمن الشواء الذي أعدته له؟
فيجيبه: ربع دينار.

فيأخذ الثمن من الأكل، ويسمع الشواء رنين ربع الدينار، ثم
يرجعه إلى صاحبه قائلا:

إن رنين المال ثمن كاف لرائحة الشواء!

ويختصم إليه رجلان آخران، يدعى أحدهما أنه ساعد
صاحبه في حمل حزمة من الحطب بعد أن سأله:

- ماذا تعطيني أجرا على مساعدتي إياك؟

فأجابه: لا شيء!

- أريد أن يعطيني هذا اللاشيء الذي وعدني به!

- إرفع هذه الوسادة (المخدة) أيها الرجل، وخبرني:

- ماذا ترى تحتها؟

- لاشئ.

- خذ لاشيئك من تحت الوسادة، واذهب لشأنك!

وهذا، أحمد المعطري من أعلام الشخصوس الجحوية الحديثة في صنعاء، ياتمر به جماعة من الخبثاء ليورطوه في مأدبة عشاء، فلا يتردد في القبول، ويصبر عليهم حتى إذا خلعوا نعالهم بالباب، واستقربهم الجلوس على وسائده، جمع المعطري (جحا صنعاء) أحذية أصحابه، وأسرع بها إلى السوق، فباعها، واشترى بثمنها طعاما لأصحابه.

ثم يطيلون الحديث والبحث عن أحذيتهم على غير طائل، ويقبلون عليه يسألونه عنها، فيجيبهم ساخرا:

أحذيتكم في بطونكم!

وهذا (أرتين) «جحا الأرمن»، يرى أحد البخلاء، مشرفا على الغرق، ويسمع أصحابه ينادونه: هات يدك.

فيقول لهم (أرتين) ساخرا:

لا تقولوا له هات، فإنه ينفر منها، بل قولوا له: خذ أيدينا، إذا

كنتم جادين في إنقاذه!

فإذا تركنا باب السخرية إلى مايشاع عن (جحا) فى بلاد العالم، من ضروب الغفلة، وجدنا طرائف لا تحصى. فهذا (بات) جحا أرلندة، يبعث إلى صاحبه بالكتاب التالى:

أرسل إليك هذه الرسالة - ياعزيزتى - وأنا غير آمن على وصولها إليك، لأننى سيئ الظن بالبريد هذه الأيام. فإذا لم تصل، فلا تتوانى عن الافضاء إلى بذلك، لأبعث إليك برسالة أخرى! وأحب أن أنبهك إلى أن القلم الذى أكتب به الآن من نوع ردى. فإذا عثرت على خطأ فى رسالتى فعلى هذا القلم الملعون وحده تبعة ماتجدين من غلط!

وهذا (جورج) جحا لندن، يقسم ليكفن عن الخمر، فلا يلقى على عهده ثلاثة أيام حتى يذارعه الحنين إليها فى اليوم الرابع، فإذا بلغ الحان، عرج عليه قائلاً:

هنيئاً لك يا جورج، عزيمتك الصادقة. لقد وفيت بعهدك أربعة أيام، ولا بد من مكافأتك على ذلك بكأس من الخمر. فإذا جرع الكأس الأولى قال:

هذه مكافأة اليوم الأول. والثانية مكافأة اليوم الثانى!

ثم أسلمته الرابعة إلى العشرين!

لحة تاريخية؛

وقد ولد (جحا العري) أبو الغصن دجين بن ثابت بالكوفة، وعاصر الباطش الجري: «أبا مسلم الخراساني». وقد نمي خبره إليه، فاستدعاه واستظرفه، ودخلت عليه حيلته، فحسبه أبله أو مخبولا، وما هو في الحقيقة بأبله أو مخبول، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول.

وقد سجل (أبو الغصن) هذا اللقاء في ذكرياته التي حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهل، قال:

لقد نمت بعض أخباري إلى أبي مسلم الخراساني القائد الجبار الذي هزم الدولة الأموية، وزلزل كيانها، وأقام الدولة العباسية، وثبت دعائمها مكانها وشيد بنيانها، فامتلات نفسي منه رعبا وفزعا أول الأمر ثم جريت على مألوف عادتني في الاستهانة بما لا حيلة لي في دفعه من الأخطار، ومقابلته بالابتسام.

لم أكن أعلم لاستدعائه سببا، فلما بلغت مكانه علمت أن صديقي (يقطين) قد سمع (أبا مسلم) يذكرني بالخير في أحد مجالسه، ويتنادر بما أذاعه بعض الأغنياء عني من ضروب الغفلة.

فلم يكذب يتبين شوقه إلى لقائي، حتى أفضى إليه بمكاني،
فأمر أبو مسلم باستدعائي إليه، فاعتصمت بالحذر، وتظاهرت
بالبله.

ولم أكد أرى صاحبي (يقطين) مع أبي مسلم، وليس معهما
ثالث، حتى التفت إليه متباليها، وسألته متغابيا: أيكما أبو مسلم
يا (يقطين)؟

فانخدع في أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته،
واستغرق في الضحك من بلاهتي.

وهكذا ضمنت الفوز في البعد عنه، والنجاة من صحبته.

وقد ذاع صيت (أبي الغصن) ونبه ذكره في أوائل القرن
الثاني من الهجرة. وأعجب الناس بما سمعوا به من طرائفه
وملحه، ثم دفعهم إعجابهم به إلى أن خلعوا لقبه على كل
دعابة مستملحة، ثم أضافوا إليه، على مر الزمن، جمهرة
كبيرة من طرائف غيره من المبدعين، فاختلطت بفكاهاته،
وتعذر التمييز بين الأصل والتقليد.

ولم يلبث (جحا) أن أصبح علما على فن من فنون الفكاهة
الشعبية، بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفاذا الناس.

ثم ظهر الأستاذ (نصر الدين) التركى فى القرن الثامن
الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

وقد ولد فى أحد بلاد الأناضول، وكانت (سيوى حصار)
مسقط رأسه .

وقد عاصر (تيمور لنگ) ، وذاع صيته، وراجت فكاهاته،
وحوّن الناس لقبه من (خوجة) إلى (جحا) ، لتقارب الاسمين،
وتشابه الشخصين .

ومهما نغفل من الشخص الجحوية، وما أكثرها فى بلاد
العالم فإننا لانغفل (تل) جحا الألمانى، الملقب (بمرآة البومة)
وهو معاصر لجحا التركى، ويكاد يكون نسخة مكررة له، إن لم
يكن هو .

وقد ولد (جحا) الألمانى فى مدينة (كنيت لينجن) . ومات
عام ١٣٥٠ م وقد أطلق عليه لقب: مرآة البومة، لأن البومة -
على الرغم من إجماع الناس على استنكار صورتها - لا ترى
فى المرآة الا وجهها طبيعيا لايعاب .

والطرائف المنسوبة إلى (جحا) فى أى بلد من بلاد العالم
تمثل، أكثر ماتمثل، ألوانا من آراء منتحليها، وروح الدعابة
الأصيلة فى نفوسهم .

لم يسلم جحا من اتهامه بالغفلة حيناً، والبله أحياناً. ولقد
افتن الناس في نسبة الكثير من الأقاصيص التي تصوره غافل
معتوه، وينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيرى البارع، الذى
رسم به الجاحظ أعجب نموذج للذاهل الحالم، وألصقه بكيان
النحوى، ثم جاء من بعده، فألصقوه بفيلسوفنا العربى الحالم،
وتمثلوه كما تمثل الجاحظ «كيان»: يسمع غير ما يقال، ويكتب
غير ما يسمع، ويقرأ غير ما يكتب، ويفهم غير ما يقرأ. وقد نظم
بعضهم هذا المعنى، فقال:

تقول له: زيد، فيكتب، خالداً ويقرؤه، عمراً، ويفهمه، بكراً!

وهى غفلة، يكاد يتسم بها كل مفكر عميق، اذا حصر ذهنه
فى فكرة بعينها، وليس مثل «نيوتن» ببعيد عن الالذهان، حين
ألقى بساعته فى ماء يغلى، وأمسك بالبيضة، وهو يحسبها
ساعته، ليرقب نضجها وشيها!

ولعل هذا المثل يفسر لنا كيف حمل الناس كثيراً من
الطرائف والدعابات الجحوية على غير محلها، وفهموها على
غير وجهها.

ومهما يكن من أمر، فقد كان (أبو الغصن - جحا) يؤثر
التبالة والتغافل وتنطوى فى أعماقه نفس صافية راضية

مبتهجة . وكان أسلوبه الرائع يفيض من اشراقه ومرحه ، على حقائق الحياة المرة ، فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة واشراقا .

أما (تل) جحا الألمانى ، فقد ميزه بعض الباحثين بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لغيره أن يعزو إليه قليلا من الخبث واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته بما يؤثر عنه من المغالاة فى تطبيق مايسمع حرفيا ، والوقوف عند مدلول اللفظ الحرفى غير معنى بما تنطوى عليه فى أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية . وافتن المتخيلون فى نسبة كثير من المفارقات فى هذا الباب ، تمثل أكثر ماتمثل ، ألوانا من آراء متخيلياها وروح الدعابة الأصيلة فى نفوسهم ؟

ولكن أى الشخصوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات ؟
ومن أبرع ماقرأناه فى الدفاع عن بلاهة جحا ، قول ناقد ألمانى :

«إن جحا كان فلاحا ذكيا ، مستقيم الفطرة . وإنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية مايلقى إليه من حديث الأ رغبة فى السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون إخفاء مايضمرون من احتقار لأمثاله من الفلاحين «حين ذاك» ، ويستدلون على ذلك - فيما يستدلون - بالقصة التالية :

سأله سائل: ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة؟

فحسبه لم يسمع، فأعاد عليه السؤال بصوت. مرتفع فأجابه
الاجابة الأولى نفسها فغضب الرجل وحسبه يهزأ به، فصرخ
فيه أجب عن سؤالي أيها الغبي.

فقال له: سر في طريقك!

فتركه الرجل ومشى في طريقه ثائرا يكيل له اللعنات. ولم
يكذب يبتعد عنه قليلا حتى صاح فيه أن يتمهل، ليلقى إليه بكلمة!
فوقف الرجل متعجبا من غرابة أطواره: وسأله:
ماذا تريد؟

فقال له في هدوء الفيلسوف:

إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين!
فأدرك الرجل أن جحا كان على صواب، فلم يكن في وسعه
أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة، قبل
أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطواته!

صديقي جحا، كما عرفت وأحبته،

تفاؤل دائما،

هذه خلاصة الفلسفة الجحوية. وهى فلسفة تخلق العجائب
فى كل شئ.

ولقد كانت هذه الفلسفة هي السياسة العليا، لدولة انتصرت
في الحرب الماضية، وما زالت هي فلسفتها إلى اليوم. ولقد
عشت مع جحا وخالطته زمنا طويلا. وما زلت أخالطه.
وعرفني وعرفته. فتعلمت على يديه أجل الدروس، وما لم
أتعلمه على يد غيره.

وجحا لا يعرف البكاء، فهو يرى البكاء نوعا من الضعف
يسلم الانسان إلى الهموم والاحزان، ويرى أن التفاؤل كفيل
بإيصال الإنسان إلى غاياته وأهدافه وحسبكم من جحا أنه يرى
أن الدنيا لا تستحق منا هذا العناء من التشاؤم والطيرة ومحالفة
الهموم، بل تحتاج منا إلى أن ننظر إليها دائما متفائلين.

دولية جحا:

وجحا شخصية دولية، وعنصر هام في كل دولة من الدول،
شرقية كانت أو غربية. وتكفي دولية جحا، للتدليل على أهمية شخصية.
فبينما نجد «جحا العرب» يتمثل في شخصية أبي الغصن،
نجد «جحا تركيا» يتمثل في شخصية «نصر الدين خوجة» على
حين نجد في فرنسا من الشخص الجحوية دي كراك، ودي
لاباس، وميشيل موران.

ونجد في مرسيليا وحدها، بوتاس، وكالينو، وماريوس.

ونجد فى باريس، دوق دى سان سيمون، ونجد أرتين فى بلاد الأرمن، وكميل سيمون فى لندن، وسن يات فى ايرلنده، واندولوس فى اسكتلنده، ودافيد فى جنوب غربى انجلترا، وسان جورج فى انجلترا نفسها.

ومن الشخوص الجحوية الشرقية الظريفة، طلحة الفارس، والشيخ تشلى الهندى وخوش خال خان الافغانى.

وفى صنعاء وحدها، على بن زايد، وحميد بن منصور، وأحمد المعطرى.

نصوص الأدب:

ويمكننى أن أصارحكم بأن معظم الروايات التى تستند إلى الشخوص الجحوية الأجنبية إنما هى فى الواقع مسروقة من تراث أدبنا العربى، وهذا هو رأى دون تعصب.

ويمكننى أن أصرح مستشهدا على صدق رأى هذا بما قرأناه فى إحدى الصحف الاسبوعية المعروفة من أن «جحا انجلترا» الحديث (برنارد شو) سئل عن حالة فقال ماخلاصته:

لم يجد «برنارد شو» من يتحدث إليه غير برنارد شو!

وهذه سرقة واضحة ظاهرة، فقد سئل جحا العربى ذات مرة: لماذا اعتكف عن الناس؟ فقال:

بحثت فيهم عن هو أذكى من جحا فلم أجد الا جحا نفسه .
فجلست إليه ليحل لي مشاكلي !

سرقة شرقية:

على أن سرقة أفكار جحا العربى لم تكن مقصورة على
جحا الغرب، بل سرقها كذلك نصر الدين خوجة التركى،
واستولى عليها ظلما وعدوانا:

فقد أعلنت احدى المجلات التركية عن مسابقة، يفوز فيها
بجائزة، كل من يقوم بتأليف رواية عن نصر الدين خوجة
ويذكر كل قصة وردت عنه .

فكان القراء أذكى من ناشر الاعلان، فقد سرقوا كثيرا من
قصص أبى الغصن، وأسندوها إلى جحا التركى!

الحوادث الجحوية كثيرة:

والحوادث الجحوية أكثر من أن تحصر، ويكفى أن نطوف
بكم قليلا، لنقطف لكم بضع زهرات مشرقة من هذه البساتين
الرائعة المثمرة، وننبه إلى أنه أضيفت إلى هذه الحوادث بعض
فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين، من أمثال: هبنقة، وفند،
وطفيل، وأضرابهم . ونسوق هذه الأمثلة اللطيفة عن فلسفة جحا .

فى عيادة طبيب؛

شكت زوجة جحا إليه ألما فى بطنها، وأمرته أن يستدعى لها الطبيب فلما خرج من باب المنزل أشرفت عليه من الدور الثانى، ونادته، وأفهمته أنها شفيت، ولا داعى للطبيب!

ولكنه فى ذهوله، والفلاسفة حالمون، توجه إلى عيادة الطبيب، ولم بتذكر شفاء زوجته، إلا بعد أن وقف بين يدى الطبيب، فسأله: لماذا حضرت يا جحا؟ فأجابه على الفور: لقد شكت زوجتى ألما فى بطنها، وأمرتنى أن أستدعيك، فلما خرجت من باب المنزل أطلت على وأخبرتنى أن لا داعى لحضورك، فقد شفيت!

وقد حضرت إليك الآن لأخبرك بهذا حتى لا تكلف نفسك مشقة الحضور إلينا!

ذكاء جحا؛

وطوف ذات مرة فى الصحراء، فصادف رجلا بشع الهيئة، أمسك به، وأراه جثث موتى على قمة الجبل، ورءوسهم مفصولة عن أجسامهم فسأله جحا: ما هذا:

فقال الرجل: هؤلاء كل واحد منهم طلبت منه أن يجيئنى عن أربعين سؤالا بجواب واحد لا يتغير، فعجزوا جميعا، فقتلتهم! فهل عندك الجواب، أو تقتل معهم؟

فقال جحا: عندي هذا الجواب، وسل ما بدا لك.

فظل يسأله السؤال تلو السؤال، وجحا يجيب بإجابة واحدة حتى أنهى الأربعين سؤالاً، ولم تكن إجابة جحا إلا كلمة هي (لا أدري)، فأخلى سبيله!

كلمة واحدة؛

وسئل جحا ذات مرة: كم عمرك الآن؟ فقال: أربعون عاماً، ف قيل له: إنك قلت لنا هذا من سبع سنوات مضت. فأجاب على الفور: وهل يغير الحر كلامه؟

يوقف الزمن؛

وسئل مرة، كم سنة بينك وبين أخيك؟ فقال سنة واحدة. فإذا مضى هذا العام تساوينا في السن عند استقبال العام الجديد! **المذهب الجحوى؛**

والمذهب الجحوى - كما قدمت - مذهب سافر فلسفى فى الوقت نفسه، وليس أدل على ذلك من (تل أويلن أشبيل) الذى كان يحمل فى يده بومة، وفى الأخرى مرآة، واشتهر بهذا.

ولهذا تحليل غريب كما أراه، فهو يشير إلى أن البومة هي المخلوق الذى يجمع على التشاؤم منه العالم البشرى كله. فإذا

نظرت هذه البومة في المرأة، فلا تجد صورتها إلا مخلوقا
طبيعيا عاديا، بل قد ترى في صورتها حسنا وجمالا تدل به
على خلق أوفى!

حاجتنا إلى فلسفة جحا؛

على أنني أنصح لكل عربي أن يتأسى بفلسفة جحا، ذلك
بأنها السبيل الوحيد الذي سيهزم أمامنا الصعاب، ويزيل
العقبات. فإذا وجدت هذه النصيحة آذانا مصغية، فستكون خير
هدية أقدمها لصديقي جحا، كما عرفته وأحببته.

فن الكتابة؛

ليست الصعوبة، التي تعترض الكاتب أو الشاعر، في أن
يكتب أو ينظم في أي موضوع شاء، بل الصعوبة كلها في أن
يقول مايعنيه بالضبط في هذا الموضوع.

هكذا يقول بعض كتاب الإنجليز وأساطين مدرسي الانشاء.
وقد استشهدنا بهذا القول في مقدمة ديوان ابن الرومي، حين
عرضنا للكلام على دقته التي امتاز بها في شعره، كما
استشهدنا بقول الشاعر العربي:

وفضلني في القول والشعر أننى أقول على علم، وأعلم ما أعنى

وهذه هي الغاية الجليلة التي يجب أن يفوق إليها رام
سهامه، ويجعلها نصب عينيه. وهي الغاية التي نريد أن نبين
الطريق المؤدية إليها، تاركين الكلام إلى أساتيد التربية وكبار
المنشئين الذين قضوا حياتهم في تدريس هذا الفن الجميل،
ملخصين آراءهم حيناً، ومقتبسين بعض عباراتهم حيناً آخر
رغبة في الاختصار الذي تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة.

والى القارئ خلاصة هذه الآراء:

أول ما نرمى إليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب
الإنشاء خطة واضحة، ونبين له منهاجاً يترسم خطاه، ليصل
إلى غايته رأساً، دون أن يضيق وقته عبثاً في تمرينات متشعبة
وغير مجدية. فضلاً عن كونها حجر عثرة في طريقه، وحائلاً
دون كتابته الصحيحة الرشيدة المنشودة.

والواجب أن نعمل على أن نثبت أقدامهم، ونمكنهم من
الكتابة التي تجمع بين الرشاقة والقوة، وتكون - إلى ذلك -
خالصة من الشوائب، دقيقة التعبير، حسنة الأداء.

وللوصول إلى هذه، سلوك طريق عملية واحدة، هي الاكثار
من التمارين الإنشائية إلى حد قد يظنه البعض غير ضروري،
أو يرى فيه اسرافاً لا داعي إليه، اسرافاً في الجهود، واسرافاً في

الزمن، ولكن سلوك هذه الطريقة الطويلة ضرورى لا مئاص منه. وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الأخرى التى هى أقصر منها خير منها.

ألا ترى إلى طالب العود أو البيان (البيانو) ؟

قل لى بريك: كم عاما أمضى فى سبيل غايته ؟

وكم من الزمن مر عليه حتى وصل إلى درجة الاتقان أو-

على الأصح - حتى دنا من درجة الاتقان ؟

وإذا كان ذلك على هذا النحو فما بالك بمن يتطلع إلى إتقان

الكتابة والتصرف فى فنون القول ؟

ما بالك بمن تطمح نفسه إلى مثل هذا المطلب الوعر ؟

وكم من السنين، يجدر به أن يقضيها، حتى يصل إلى

غايته ؟ «ومن يخطب الحساء لم يغلها المهر» .

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان، ويسمو بأسلوبه

عن الركافة واللبس والتعقيد، وما إلى ذلك من عيوب الكتابة

وصعاب اللغة، ويجمع إلى ذلك ذوقا فنيا عاليا ؟

أضف إلى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء، إنما هو-

على الحقيقة يريد أن يتعلم كيف يفكر ؟ فهو فى بحثه عن

الكلمة الصحيحة الفصيحة، وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء،
الموفق التعبير - يسلك كثيراً من شعاب القول وفنونه، ويمر
بمنعرجاته ومنعطفاته الكثيرة، باحثاً منقبا عن الفكرة
المنشودة، متخيراً من بينها أمثل طريق.

وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب، ويميز بين
الحسن والأحسن. وكلما سار في هذه الطريق تفتحت أمامه
كنوز اللغة وفرائد المعاني، وكان مثله كمثل (سول)، ذلك
الفتى الذى تحدثنا الاساطير، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه
وعيرانه فظفر بملك عظيم!

تمارين الانشاء:

أما تمارين الانشاء فيجب أن تكون قصيرة في أكثر الأحيان
وأنا ألح في الرجاء، أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الأمر
كل العناية، وأن يتجنبوا غالباً المقالات الطويلة، فهى منهكة
لقواهم، مضیعة لوقت المدرسين بلا طائل. وهى، إلى ذلك،
تعود الطلبة أن يجمعوا كثيراً، وربما عن جوهر الموضوع، كما
يحدث ذلك أحياناً، ويبعدوا عن أسسه. وشر عيوب الكتابة الشطط.

أضف إلى ذلك أن التطويل يعود الطالب الإهمال فى صوغ
عباراته بدقة، كما يعود الإهمال فى تخير الالفاظ، فلا ترى

له إلا كتابة مفككة الأوصال، ركيكة التعبير. على حين أنه لو كتب موضوعاً قصيراً، أحسن تنسيقه، وعنى بأدائه خير أداء.. لكان ذلك أجدى عليه، وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب، في عدة صفحات، قد رصفت فيه الكلمات رصفاً، بلا روية ولا إحكام.

ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب إلى الطريق التي يسلكها، ثم يدع له وحدة تخير الجمل وصقل الأسلوب.

أما الطالب، فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعاني ما يلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه، حتى يجيد أدائه.

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الانشائية في الفصل، أمام التلاميذ كلما كان ذلك ممكناً. فإن ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله. ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال، وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة في نقط الموضوع، وتبين وجهات الخطأ والصواب فيه. فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد والأخذ والرد والمناقشة. ويمتلئ الدرس حياة ونشاطاً. ويتعود الطلبة الكلام والمحااجة منذ حداثتهم.

حي بن يقظان^(١)

نشأة المؤلف:

مؤلف هذه القصة الخالدة، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن محمد بن طفيل الاندلسي. وهو ينتسب إلى قرطبة، وأشبيلية... ويدعى تارة بالقرطبي، وتارة بالأشبيلي. ويعزى إلى قبيلة قيس المشهورة.

وكانت ولادته في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي. وقد اشتغل بالطب في غرناطة، ثم أصبح قاموس هذه المقاطعة. ومالبت أن ذاع صيته في الآفاق، وعرف فضله بين أفاض معاصريه، وأصبح علما من الاعلام، بعد أن اتصل بأبي يعقوب، عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م). وصار أصفى أصفياه، وأخلص سماره وندمائه.

(١) طالع هذه القصة في مجموعة (قصص عربية) التي أخرجها الأستاذ (كامل كيلاني).

أبو يعقوب وثقافته :

أما أبو يعقوب هذا، فهو يوسف بن عبد المؤمن، وقد أسس أبوه دولة الموحدين، ثم خلفه ولده أبو يعقوب على (سبته، وطنجة). واتخذ ابن طفيل كاتم سره وأنيسه وطبيباً ولم يخالف له رأياً، ولم يرد له مشورة.

وكان أبو يعقوب هذا مثال الوالى المثقف الناضج، وقد اختار حاشيته وأصفياه من أعيان المفكرين فى عصره.

قال المراكشى يصف أبا يعقوب:

(وكان أبيض، تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه، أعين، إلى الطول أقرب، فى صوته جهرارة، رقيق حواشى اللسان، حلو اللفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس بالطريقة التى تكلم بها العرب، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام.

وصرف عنايته إلى ذلك.. أيام ولايته على أشبيلية فى حياة أبيه. ولقى رجالاً من علماء اللغة والنحو والقرآن.

وكان أبو يعقوب - كما يقول المراكشى - شديد (الملوكية)، بعيد الهمّة، سخياً جواداً، استغنى الناس فى أيامه، وكثرت فى أيديهم الاموال هذا مع ايثار للعلم وتعطش إليه مفرط.

ثم قال: (وكانت له مشاركة في علم الادب، واتساع في حفظه اللغة، وتبحر في علم النحو. ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة. فأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي.)

إلى أن قال: (ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء - وخاصة أهل علم النظر - إلى أن اجتمع له مالم يجتمع لملك قبله، ممن ملك المغرب).

فضل ابن طفيل؛

قال المراكشي؛

(وكان ممن صحبه من العلماء، أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين. كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة. قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ورأيت لأبي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهييات وغير ذلك.

فمن رسالة الطبيعة رسالة سماها، رسالة حي بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على النحو الذي يراه. وهي رسالة لطيفة الجرم، كبيرة الفائدة في ذلك الفن. ومن تصانيفه في الآلهيات رسالة في النفس رأيتها بخطه رحمه الله. وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي.

ونبذ ما سواه : وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشرعة ،
معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية .

وكان أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له : بلغني أنه كان
يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهارا ، ولا يظهر ، وكان أبو
بكر هذا أحد حسنة الدهر .

مثال من شعره :

وقد اختار المراكشي من شعر ابن طفيل قوله في الزهد :
يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط

هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين إلى أجل

فانحاز علوا ، وخلي الطين للكفن
يا شدي ما افترقا من بعد ما اعتنقا

أظنها هدنة كانت علي دخن
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما

فيالها صققة تمت على عين
ابن طفيل وابن رشد :

وكان لابن طفيل الفضل في تقديم ابن رشد إلى السلطان أبي
يعقوب . وقد وصف ذلك المراكشي ، فقال :

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب العلماء من جميع الأقطار، وينبه
عليهم، ويخصه على أكرامهم والتلويح بهم، وهو الذي نبه
على ابن الوليد محمد أحمد بن محمد بن رشد، فمن حينئذ
عرفوه ونبه قدره عندهم.

وكان أبو الوليد يقول غير مرة: لما دخلت على أمير
المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل، ليس
معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى على، ويذكر بفتى وسلفي.
ويضم بفضلته إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى، فكان أول ما
فاتحنى به أمير المؤمنين: بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي
ونسبي: أن سألتني عن رأى الفلاسفة في إحدى المسائل التي
اختلفوا فيها، فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر
اشتغالي بعلم الفلسفة ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل،
ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء. فالتفت إلى ابن طفيل،
وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها، ويذكر ما قاله
أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة. فرأيت منه غزارة
حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن، من
المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت. فعرف ما
عندى من ذلك. فما انصرفت حتى أمر لي بمال وخلعة سنوية
ومركب.

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال: استدعاني أبو بكر ابن طفيل يوما. فقال لي: سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه، ويقول:

لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها، بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس. فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل. وإنني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمدني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه.

قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتاب الحكيم أرسطوطاليس.

وقد رأيت لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد، في نحو مائة وخمسين ورقة. وله ترجمة بكتاب الجوامع.

وقد لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان، وكتاب السماء، والعالم، ورسالة الكون، والفساد، وكتاب الآثار العلوية، وكتاب الحس والمحسوس.

ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط، وهو
أربعة أجزاء.

وجملة القول إنه لم يكن في بنى عبد المؤمن - من تقدم
منهم وتأخر - ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا.

مكتبة أبي يعقوب:

رأى القارئ مما أثبتناه ما ينبئه عن شغف أبي يعقوب
بأفاضل العلماء، وأفذاذ المفكرين، أمثال: ابن طفيل، وابن
رشد، كما رأى هذا السلطان المثقف في تنشيط الحركة العلمية،
وبعث الآراء الفلسفية ونحب أن نقبس مثلاً آخر مما رواه
المراكشي في كتابه: (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)
ليتبين منه مقدار ولوع هذا السلطان باقتناء نفائس الكتب،
وشغفه بجمعها، وتحاييله على ذلك، حتى اجتمع له منها شيء
كثير فهو - كما يقول المراكشي - لم يزل يجمع الكتب من أقطار
الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء - وخاصة أهل علم
النظر - إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله، من
المغرب.

والى القارئ ما يقوله (المراني). وكان يملك مكتبة حافلة
بروائع الكتب، كما أثبتته المراكشي في كتابه - قال المراني:

(انتهى خبر هذه الكتب إلى أمير المؤمنين (أبى يعقوب)
فأرسل إلى دارى، وأنا فى الديوان - لا علم عندى بذلك - وكان
الذى أرسله (كافور الخصى) مع جماعة من العبيد الخاصة.
وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار، ولا يأخذ سوى الكتب،
وتوعده - ومن معه - أن نقص أهل البيت ابرة فما فوقها.

فأخبرت بذلك - وأنا فى الديوان - فظننته يريد استصفاء
أموالى فركبت - ومأمعى عقى - حتى أتيت منزلى، فإذا
الخصى (كافور الحاجب) واقف على الباب - والكتب تخرج
إليه - فلما رآنى وتبين دعرى، قال لى :

- لا بأس عليك .

وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم على، وأنه ذكرنى بخير،
ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى، ثم قال لى :

سل أهل بيتك : هل راعهم أحد، أو نقص شئ من متاعهم ؟

فسألتهم فقالوا :

- لم يروعنا أحد، ولم ينقصنا شئ .

وقالوا : جاء أبو المسك كافور، واستأذن علينا - ثلاث مرات .

- فأدخلنا له الطريق، ودخل هو بنفسه - إلى خزانة الكتب،
فأمر باخراجها .

فلما سمعت هذا القول منهم، زال ما كان في نفسي من الروع .
قال المراكشي : وقد ولوه - بعد أخذهم لهذه الكتب منه -
ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه :

ذلك مثل نجتري به ، لنبيين افتنان أبي يعقوب باقتناء الكتب
النادرة ، وعنايته بتقريب العلماء إليه ، وحرصه على إثناء روح
البحث ، وتنشيط العلماء .

وفاة ابن طفيل :

وهكذا قضى ابن طفيل حياة مباركة ، حافلة بالدرس
والتأليف . ولم يأل جهداً في تشجيع أعلام عصره وتقديمهم
إلى السلطان . وقد رأى القارئ أثر ابن طفيل في تشجيع ابن
رشد ، والأخذ بناصره . وقد دارت بينهما مراسلات نفيسة في
مراجعة كتاب الكليات ، ذلك الذي ألفه (ابن رشد) .

وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب طبقات الأطباء لابن
أبي أصيبعة ما يلي :

(ولابن رشد مقالة أيضاً في اتصال العقل بالإنسان
مراجعات ومباحثات بينه وبين أبي بكر بن طفيل)

ومثبات ابن طفيل عام ٥٨١ هـ . (١١٨٥ - ١١٨٦ م) في
مراكش . واحتفل معاصروه بتشيع جنازته . ومشى فيها

السلطان . وظفر بما لم يظفر به الا القلائل ، فقد قدره أهل عصره - كما قدرته العصور التالية - حق قدره .

أما مؤلفاته الأخرى ، فلستنا نعرف عنها الا رسالتين في الطب . على أن قصة (حى بن يقظان) كافية وحدها في نباهة شأنه وخلود ذكره على مر الأزمان وتعاقب العصور .

أثر ابن طفيل في عالم القصة :

ولو أغفلنا فلسفة ابن طفيل كلها ، وبراعته الفذة في تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الإنسانية ، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة ، ثم نظرنا إلى أثر قصته في القصص العالمي .. لتملكتنا الدهشة . فإن (حى ابن يقظان) قد أرضعته ظبية - كما في قصته - فلم يجد صاحب قصة (سيف بن ذي يزن) أمامه الا اقتباس هذه الفكرة في مستهل تلك السيرة المعجبة ، وسار على غرار ابن طفيل ، فأختار لسيف بن ذي يزن - بطل قصته - ظبية ترضعه ، ثم ارتقى المؤلف .. من الظبية .. إلى جنيه ، تعطف عليه ، فترضعه ، فيكسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم .

وقد أوجت هذه الفكرة إلى مؤلف (طرزان) أن يختار لبطل قصته قرده ، يترعرع وينشأ بينها ، ويحاكي أفعالها .

فلما جاء (دانييل ديفو) القاص الإنجليزي المشهور اقتفى أثر ابن طفيل ، وسار على منهاجه في تأليف (روبنسن كروزو) ،

الذى عاش وحده فى جزيرة نائية مقفرة، ولم يفتنه أن يختار
لبطل قصته رفيقا يسعده فى آخر مقامه فى الجزيرة، وهو
(جمعة). كما اختار ابن طفيل (أسأل) رفيق ابن يقظان، الذى
التقى به فى المرحلة الأخيرة من القصة.

وقد قرأنا ما يعزز رأينا هذا فى المقدمة الرائعة التى صدر
بها (ليون جوتيه) طبعته الأنيقة لقصة (حى بن يقظان) اذ
يقول:

وان قارئ هذه القصة (حى بن يقظان) ليرى فيها روح
ألف ليلة وليلة، حيث اتخذت أسلوبا فلسفيا صوفيا عاليا فى
كثير من المواقف المعجبة كما يرى فيها - بالإضافة إلى ذلك -
أصل (روبنسن كروزو) التى كتبت على غرارها، ولم يفت
مؤلفها أن يقتبس شخصية (جمعة).

ولا بأس أن نقتبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة،
لنطلع القارئ على رأى أروى ناصح فى خطر هذه القصة
العربية الفذة، قال (جوتيه):

(إن القارئ ليدش، إذ يرى تعاليم أرسطو ماثوثة فى أثناء
هذه القصة، وقد امتزجت بألوان بارعة من الصوفية العالية،
والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية، فى أسلوب عبرى حقيق بالاكيار.

وقد أبدع المؤلف في أمثاله التي عرض بها إلى دقائق التشريح، وتحليل التربية والمياد، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية، والرموز البارعة التي عبر بها عن دقائق في فن مؤلفها، وبراعة أسلوبه الجامع، وإبداعه في تحليل غوامض الفلسفة وتدرجها ونمائها واتجاهاتها، وجمع أطرافها، ولم أشتاتها المبعثرة، في نسق علمي أخاذ، يتجلى للقارئ في ذلك القصص الطبيعي الجذاب.

الرقصة روبنسن كروزو:

على أن قصة (روبنسن) تلك التي وضعها مؤلفها على غرار قصة ابن يقطان، قد أوحى إلى كثير من القصاصين أن يحاكوها، ويسيروا على نهجها. فلجئنا منها مايلي:

(وفي عام ١٧١٩م.. شرع (ديفو) في تأليف القسم الأول من (روبنسن كروزو) وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره.

وسار على نهجه كثير من الكتاب، ولم ينجح - من بينهم - غير كتاب (روبنسن سويسرا) أو الأسرة السويسرية، ذلك الذي ألفه (رودولف نيس) أستاذ الفلسفة في جامعة برن، وقد اختار لقصته أسرة، عدها ستة أشخاص، ينجون من الغرق، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة،.. يسودها الوئام والحب.. فتتغلب على العقبات والمتاعب).

ابن يقظان وجلفر:

ولو شئنا أن نتقصي أثر القصة العربية، التي أبدعها ابن طفيل في روائع القصاصيين لامتد بنا نفس القول، واحتجنا إلى رسالة مستفيضة.

فنجتزئ بالإشارة السريعة إلى أثر قصاصنا (ابن طفيل) في الكاتب العبقرى (سويفت)، مؤلف جلفر، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦ م. في مدينة لندن. فأحدثت دويًا هائلًا وآثارًا بعيدة المدى:

إن القارئ الباحث ليدعشه ما يراه في قصة جلفر من وجوه الشبه حتى ليجزم بأن (سويفت) كان يسبح في كثير من الأجواء التي سبح فيها ابن طفيل. فإذا نظرنا إلى تلك المحادثات المستفيضة التي دارت بين جلفر وبين العمالقة - في الجزء الثاني - وبين جلفر والحياد الناطقة في الجزء الرابع - وهي محاورات تدل على سخط صاحبها على الجنس الإنساني ونقمته من ضلالهم وأفانين غرورهم - رأيناه تبسيطًا، وشرحًا لنعمة (ابن يقظان) وسخطه على ضلال الجنس الإنساني.

وإذا نظرنا إلى فطنة ابن طفيل إلى أهدى أسلوب في تعليم لغة أجنبية... الأسلوب المباشر وهو... فيما نعلم... أول من كشف

لنا الستار عنه - وجدنا (سويقت) يلجأ في قصته إلى تقرير هذا
الاسلوب نفسه في تعلم جلفر لغات الأقزام، والعمالقة، وسكان
الجزيرة الطائرة والحياد الناطقة.

أنظر إلى قول ابن طفيل:

(ثم سمع - ابن يقظان - ضوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد
مثلا من شيء (من أصناف الحيوان).

وأنظر إلى قول سويقت على لسان جلفر:

(ثم دار بين الجوادين حوار طويل، هو أقرب إلى أن يكون
حوار فيلسوفين، يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة، لاعد لهما
برؤيتهما من قبل).

وانظر إلى دهشة جلفر من لغة الأقزام والعمالقة وسكان
الجزيرة الطائرة. فإنك واجد ما يحقق هذا الرأي، ويقنعك
بصدق ما ذهبنا إليه.

أما مشكلة الثياب فقد ظهر فيها توخي (سويقت) نهج ابن
طفيل ظهورا بينا.

فانظر إلى قول ابن طفيل:

(ونظر - ابن يقظان - إلى أشكال - أسال - وتخطيطه، فرآه

على صورته وتبين له أن المدرعة التي عليه ليست جلدا طبيعيا، وإنما هي مثل لباسه هو).

فاتخذ (سويغت) من هذه اللفتة البارة نواة لقصته في بلاد العمالقة، كما استفاد في تبسيط هذه الفكرة وتحليلها في قصة جعفر مع الجياد الناطقة فهو يقول في الأولى:

(وما بكاد (العملاق) يرانى حتى دهش وأخذ قشة صغيرة من الأرض - في حجم العصا التي نتوكأ عليها في بلادنا ورفع بها أطراف ثوبى، وهو يحسبه غطاء وهبته لى الطبيعة، كما تهب الى الطيور الريش، ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح. ثم نادى خدمه وقال لهم فيما فهمت من دهشته وشارته: (إنه لم ير حيوانا يشبهنى فى حقوله!)

وقد شغلت مسألة الثياب هذه أرحب مكان فى نفس (سويغت). فلم يكتف بتقريرها فى هذا الموضع من كتابه، بل عاد إليها فى الجزء الرابع حين عرض لحوار الجوادين الناطقين، وتناولها فى هذه المرة مسهبا مستفيضا فى شرحها وتحليلها، فقال:

وتكنفنى هذان الجوادان، وأجالا أبصارهما فى، وظلا يطيلان التأمل فى وجهى ويدي زمنا يسيرا.

وَدَنَا مَتْنٌ أَحَدُ الْجَوَادِينَ - وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمَرْقَشُ - فَرَفَعَ رِجْلِيهِ
الْأَمَامِيَّتِينَ إِلَى قَبْعَتِي، وَعَلَيْكَ بِهَا، فَأَفْرَعْتُهَا مِنْ فُورِي - وَدَهَشَ
الْجَوَادُ الْآخِرُ - وَهُوَ الْجَوَادُ الْإِخْمَنُ حِينَ أَمْسَكَ بِذَيْلِ ثَوْبِي، فَرَأَاهُ
بَعْضُ مَلَيْصِقٍ بِحَسْبَتِي -

إِلَى أَنْ قَالَ -

بَعْدَ ذَلِكَ السَّادَةِ الْجَوَادِ حَائِرِينَ فِي أَمْرِي - وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّ
ثِيَابِي لَيْسَتْ إِلَّا جُرْعًا طَبِيعِيًّا مِنْ جَسْمِي - ثُمَّ افْتَضَحَ السَّرُّ لِلسَّيِّدِ
الْجَوَادِ بَعْدَ ذَلِكَ - فَقَدْ وَقَعَ لِي حَدَثٌ - لَمْ يَكُنْ فِي حَسْبِيَانِي -
اصْطَرَفْتَنِي إِلَى الْإِقْضَاءِ إِلَيْهِ بِحَقِيقَةِ أَمْرِي -

وَأَنِّي مُوجِزَةٌ لِلْقَارِئِ فِيمَا يَلِي -

لَقَدْ أَسْلَفْتُ الْقَوْلَ - إِنِّي كُنْتُ لَا أَتَزَعُ ثِيَابِي عَنْ جَسَدِي كُلَّ
لَيْلَةٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَسْتَوْثِقَ مِنْ نَوْمٍ كُلِّ لَيْلَةٍ فِي الدَّارِ - فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ
غَطَّيْتُ جَسَدِي بِتِلْكَ الثِّيَابِ -

وَوَضَعْتُ عَلَى ذَلِكَ شَهْرًا عَدَّةً، ثُمَّ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي
الْحَسْبِيَانِ، فَقَدْ بَعَثَ السَّيِّدُ إِلَيَّ - ذَاتَ صَبَاحٍ - بِخَادِمِ الْجَوَادِ
الْأَشَقَرِ الصَّغِيرِ - وَلَمَّا وَصَلَ الْخَادِمُ إِلَى غُرْفَتِي دَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ
أَنْ أَقْطُنَ إِلَيَّ حَضُورَهُ - فَقَدْ كُنْتُ مُسْتَغْرِقًا فِي النَّوْمِ - وَكَانَتْ
الثِّيَابُ قَدْ سَقَطَتْ عَنْ جَسَدِي - فِي أَثْنَاءِ النَّوْمِ - وَكَانَ قَمِيصِي

مرفوعا . فلم أكد أستيقظ على أثر الضجة التي أحدثتها الجواد
حتى بدأ الارتباك والقلق على سيماء . ثم عاد إلى سيده ،
فقص عليه ما رآه وهو لا يكاد يبين لاختلاط الأمر عليه .

وقد رأيت أثر هذا الحادث في نفس السيد . حين ذهبت إليه
لأخبره ، وأتلقى أوامره . فبدأني بالسؤال عما سمعته من خادمه
عن قصتي . وأخبرني أن خادمه قد أدهشه منى أن يراني في
صورتين مختلفتين أشد الاختلاف . في يقطني ومناهي . لأنه
رأى أجزاء بيضاء من بشرة جسمي ، ورأى أجزاء أخرى سمراء قائمة .

وكنيت - إلى هذه اللحظة - أخفى سري عن ذلك السيد
وغيره من الجياد ، حتى لا أسلك في زمرة الأناس الجبناء
الملعونين . ولكنني اضطررت إلى الإفشاء بحقيقة أخرى -
وعلى الرغم منى - بعد أن افترض السر .

ولقد كان من الطبيعي المحتوم أن تظهر الحقيقة التي
حاولت إخفاءها جهدي . فقد بدأ البلى يدب إلى خذائي وثيابي
من طول الاستعمال . ولم يكن لي بد من الاستعاضة عنهما
بغيرهما من جلود الباهو ، أو غيره من الدواب . وكان ذلك كله
مؤذنا بافتضاح السر بعد زمن طويل .

وقد اضطررت - حينئذ - أن أخبر السيد أن من عادتي ،
وعادة أبناء جنسي - من الآدميين - أن يغطوا أجسادهم بثياب

يضعونها من صنوف بعض الدواب، بأسلوب فنى خاص،
يحدقه النساج عندنا، ليستروا بها أجسادهم عن الأنظار، ويتقوا
وطأة الحر والقر.

فتعاطمته الدهشة، واستيولت عليه الحيرة مما سمع، لأنه لم
يكن يعرف أن أحدا من المخلوقات فى حاجة إلى ارتداء اهاب
صناعى غير اهابه الطبيعى الذى وهبه الله له..

وأردت أن أقنعه بصحة ما أقول : فرفعت شيئا من ثيابى
وخلعت حذائى وجوربى . فدهش حين رأى بياض صدرى .
وأمسك ثيابى بسنيكه، وظل ينعم النظر ويمعن فى الفكر فيما
يراه، ثم يلمس جسدى، ويدور حولى حينا فحينا، وهو لا يكاد
يصدق بصره فيما يخبره به .

وبعد افتكار طويل، التفت إلى السيد، وحنم صاهلا فى
احترام وأدب وإعجاب، «لست أشك فى أنك (ياهو) لأننى لا
أدرى فرقا جوهريا بينك وبينه، فالجسمان متماثلان . والوجه
والقدمان لا يختلفان إلا اختلافا يسيرا . فإن الشعر كثيف مرسل
على جسد الياهو، وكذلك جسدك، لأن أغلبه لا يغطيه الشعر،
وأسنانك قصيرة جدا . على عكس مخالف الياهو الطويلة . وأنت
تمشى على قدمين اثنين على حين يمشى الياهو على أربع .

ورأى السيد - حينئذ - أرتجف من البرد. فرثى لحالى.
وأمرنى أن أرتدى ثيابى ، حتى لا يصيبنى سوء.

فشكرت له عطفه على وبره بى، ثم توسلت إليه أن يعفينى
من اطلاق اسم (الياهو) على، وأظهرت له تقزى وارتياحى
وسخطى على هذه الدواب الخبيثة التى تتجلى فيها الفظاظة
والغلظة واللؤم.

وأقسمت عليه أن يكف عن هذه التسمية المفزعة، وأن يأمر
أسرته وخدمه وأصدقائه أن يعفونى من سماع هذا الاسم
البغيض الممقوت.

ولو أن هذه القصة (قصة حى بن يقظان) قد كتب لها أن
تبقى فى اللغة العربية وحدها، لعددنا ذلك من توارد الخواطر،
ووقع الحافر على الحافر - كما يقولون - ولكنها ترجمت إلى
أكثر لغات العالم.

فقد ترجمها (بوكوك)، وهو من رجال الكنيسة، إلى
اللاتينية ثم نقلها (أشويل) إلى اللغة الانجليزية.

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية، فى (اكسفورد) عام
١٧٠٠. أما ترجمة (جيو أشويل) فقد طبعتها فى السابع
والعشرين من يناير عام ١٦٨٦ فى لندن.

وقد طبعت رسالة (حى بن يقظان) بالقاهرة والقسطنطينية
عام ١٢٥٥ هـ.

ثم طبعتها (ليون جوتييه) بالجزائر عام ١٩٠٠، كما طبعت
فى سرقسطة فى هذا العام نفسه.

وترجمها إلى الانجليزية - عن أشويل - كاتب يسمى (سيون
أوكلى) وطبعت فى لندن.

وترجمت إلى الهولندية عام ١٦٧٢، وأعيد طبعتها فى
نوتردام عام ١٧٠١ م.

ونقلها عن - نسخة يوكوك اللاتينية - إلى الألمانية بريتوس،
وظهرت فى فرانكفورت عام ١٧٢٦ م.

ثم ظهرت ترجمات المانية أخرى عام ١٧٨٣، بأقلام كل
من أيشهورن، ومونك، داويرج. وظهرت ترجمة أسبانية بقلم
'فرنسيسكو بوجي'.

وقد ظهرت لها ثلاث طبعات فى مصر: أحداها بمطبعة
الوطن، وثانيتها بمطبعة وادى النيل، وثالثتها بالمطبعة الخيرية.

وقد ترجمت هذه القصة إلى العبرية. وكتب عن مؤلفها
كاتب أسباني 'يونس براج' رسالة عنوانها: ابن طفيل - حياته

وآثاره - وقد طبعها عام ١٩٠٠ . ونوه بروكلمان بهذه الرسالة في «تاريخ الآداب العربية» .

وهناك قصة فارسية عنوانها «سلامان وأسال» . ألفها «جامي» الفيلسوف الفارسي، بوحى من قصة ابن طفيل، التي ترمز إلى اشتباك العقل الإنساني بعالم المحسوسات.

وقد ترجمت القصة إلى الفرنسية، وطبعت في باريس عام ١٩١١م

شعره العام:

عرف الناطقون (بأخوات) الضاد، الأستاذ «الكيلاني» : نصيرا للأدب العربي يكشف كنوزه المحجوبة وراء السنين، ويدأب في هذا السبيل، دءوب المجاهد العزوم يزاحم ليله بنهاره . فلقد أذاع في السنين العشر الأخيرة، أدبا من أدب العربية، كان معروفا في الناس باسمه، أورسمه . فنشره كاملا، وجلاه شاملا، وأطلع الناس منه على الزهر المنشور في الروض المنصور .

أما المجالس الأدبية، فقد عرفت الاستاذ «الكيلاني» محدثا لبقا فما حل مجلسا إلا أفاض فيه من طبعه وفنه : صبغة أدبية

جلواء، يعينه على ذلك استذكاره - وهو القارئ للأدب العربي - لكل قارئ في الأدب العربي من روائع وطرف فلا يتناقل أهل المجلس أحدوثة في أدب، أو خلق، أو فكاهة، إلا مهد لها، وجمال بقدره فيها، فتذكر نظائرها وأشباهاها، مناقدا هذه، مستملحا تلك، مسترسلا في موازنة، ملؤها الدقة والثقة والاتزان.

والأستاذ الكيلاني نقيب الأدباء، صاحب نكتة بارعة هو فيها قوى العارضة، مرهوب الجانب، متوقد البديهة. وليست النكتة على لسانه عملا يتزلف إليه، حتى يزلف له. وإنما عنده طرف ولطائف من روح الحديث وروحيه، تجيء وفقا لكلمة يفكه لها، أو ردا على كلمة ينقم منها.

وللأستاذ (الكيلاني) شعر لم يظهر في صحيفة، ولم يثبت في كتاب ولكن ذاع صيته في الأندية الأدبية سريعا، كما تذايع البشرى سريعا، فأصبح شعره حديث تلك الأندية. وأصبح المتأدبون بين راو عنه، أو آخذ منه!

على أنه كان يهرب من وصفه بالشاعرية هروب «فاعل الخير» من ذكر اسمه. ولكن الشاعرية تكمن في شعره كمون الرى في الماء، والبرء في الدواء

واليكم هذه القطعة الرائعة، وقد جاء بها على لسان والدة
جان) يطل قصة (صياد الخيال) التي ترجمها عن «جان
سارمان، وهي أولى مواد كتابه (روائع من قصص الغرب)
وذلك كعادته في تدعيمه للكتب من شعره المصفى؛ والقطعة تقول:

عصف الدهر بآما	ل محب مستهام
وأبى الشوق على عيـ	ن محب أن تـ

كم تذوقت أفـاويـ	ق وصـال ومنـدام
وتحملت من الهـجـ	ر أفـانين السـقام

سوف تخبرونارحـبـي	منا الأمر من دوام
ثم أنساك، وتـنـسا	نى، ويلسانا الغـرام
ثم لا يبقـى - على الأيا	م حب، أو خـصـام

فإنك لتقرأ في هذه الأبيات القصيرة، قصة الحب من بدئها
إلى نهايتها، في أرق لفظ، وأدق وصف. وأنت لترى فيها
التصوير الصادق المؤثر لآلام المحب وأشجانه، وفنون الهوى
وألوانه. ثم ترى - فى ختامها - كيف تكون السلوة، والنسيان،
وكيف أن الزمان فى سيره الوئيد، يحمل معه - رويدا رويدا -

كل ما انطوت عليه الصدور من عواطف الحب والبغض،
ويمحو من صفحات العقول - شيئا فشيئا - صور الأحباء
والخصوم.

ويلقى من حوادثه المتتابة رمادا يطفىء النيران المشبوبة
فى القلوب. فلا يلبث المحب المولع أن تخبوا ناره، ويستقر على
النسيان قراره، ولا يلبث المغيظ المحنق أن يشغله صديق عن
خصيم، ويلهيه جديد من الحياة عن قديم.

شعره القصصى

ثم نستعرض من قطعة شعرية من تأليف الكيلانى تحكى
حوارا بين «صفاء» و «أم قشعم» فحينما عرف صفاء حديث
العنكبة استولت عليه الدهشة والحيرة فلم يسمع قولها حين قالت:

وقد تأكل العنكبة الجلبا	وتهلك الزنبار والعقريا
وكم بعوض - فى حبالاتها	راح أسيرا يبتغى مهرىا
فخدرت - بالسم - أعصابه	وأنشبت - فى جسمه - المخلبا
وقد يصيد الضفدع العنكبا	كما تصيد البومة الأرنبيا
وتأكل القططة فأرا، ولا	تبقى على فرخ صغير، حبا
وقد ألفنا كل هذا فلم	ندهش له، مهما بدا مغربا
لكن ما حير البابدا	أن تأكل العنكبة العنكبا

فأجابته (أم قشعم) :

أن تأكل العنكبة العنكبا
أويأكل الآباء أبناءها
أو تأكل الزوجات أزواجهما
أو تأكل الأم ابنها الأنجبيا
أو تأكل الأخت أخا أو أبا
فليس هذا حادثا مغريبا

أما ترى الاسماك قد شابته
تلتهم الكبرى صغيراتها
وأنتم الناس على رشدكم
لم ترحموا طيرا على غصنه
ولم تغيثوا بئسا معدما
وكم أكلتم لحم أخوانكم
فلا تعيبونا بأدوائكم
في قتل ما تلجبه العنكبا
ويأكل الحوت ابنه الاقربا
صرتم مثالا للأذى مضربا
رتل احنا شائقا معجبا
ولم تقيلوا عاثرا مذنبا
ميتا، ولم ترعوهم غيبا
فقد غدا من عابنا: أعيبا!

من السيرة النبوية:

حوار (مسرحي) حول مولد الرسول عليه الصلاة والسلام.

لم يكد عبدالله - والد الرسول صلى الله عليه وسلم - يتزوج
السيدة آمنه .. حتى حملت منه .

- ولم يلبث الموت أن اخترم حياته في مقتبل شبابه، في
مثل عمر الورود النضرة، والأزاهير الشذية العطرة .

- مات والده قبل أن ينعم برؤية ولده العظيم، الذي أشرقت الدنيا بنوره الباهر.

- ولد الرسول بعد أن مر على وفاة أبيه عبدالله عدة أشهر، فأودع الله تعالى قلب جده عبدالمطلب حبا خالصا للرسول.
- ذلك من ألطاف الله.

- فعنى به جده، كما عنى بأبنائه.

- شد ما حزنت آمنة ليتم ولدها.

- لا عجب فى ذلك، فقد كانت آية من آيات الوفاء لزوجها.

- وكانت الصدمة قاتلة فلم ينقذها غير الصبر.

- لقد كان (عبدالله) زين الشباب فى عصره.

- كان، أعلى أمثلة الشجاعة والبر والنجدة طفلا وشابا.

- كما كان، أعلى أمثلة فى الوفاء والبر صديقا وزوجا.

- فلا غرو إذا استولى على زوجته الحزن لفقده.

- ولا عجب إذا برح بها الحزن، وبلغ منها مبلغا لم يكدر يصل إليه أحد.

- صدقت، فقد جف لبنها من شدة الألم.

- كيف عاش طفلها بدون غذاء؟

- لقد حرم ثدى أمه، ولكن الله أرأف وأرحم من أن يترك رسوله وصفيه بلا غذاء، بعد أن حرم لبن أمه.

- تداركته عناية الله، فكيف؟

- أرضعته ثوية.

- من ثوية؟ فما سمعت بها قبل اليوم.

- جارية عمه أبى لهب.

- ما أعجب قدرة الله، وما أخفى الطافه.

- كأنما أرضعته جارية عمه أبى لهب، ليكون سببا في موت سيدها غيظا.

- صدقت، فقد كان أبو لهب من ألد أعداء الرسول، وقد هلك من شدة الغيظ، حين سطع نجم الرسول ﷺ، وانتشرت رسالته وتبينت حجته.

- هلك بعد أن تم انتصار الرسول في غزوة بدر.

- وكانت البدويات يقبلن على مكة في موسمين من كل عام

- كما تعلمان أيها الصديقان - ليرضعن أبناء الأغنياء.

- ولكنه لم يكن غنيا، فمن التى تولت إرضاعه، وكيف
رضيت أن ترضعه بلا مقابل؟

- أنت على حق فى هذه الملاحظة، فقد توجهت المرضعات
إلى أبناء الأغنياء. ولم يخطر ببال إحداهن أن تقبل على
إرضاع ذلك الطفل الصغير.

- كانت كل واحدة منهن لا تكاد تسمع أنه يتيم حتى تعرض عنه.
- فأنصرفن عنه جميعا.

- وبقي بلا مرضعة؟

- كلا يا صاحبى العزيزين - فإن الخير لم ينضب معينه من
الدنيا. فقد عطف عليه قلب إحدى هؤلاء البدويات.

- الآن ذكرت ما نعينه، لقد تطوعت حليلة لإرضاعه، بعد
أن انصرفت عنه أول الأمر.

من أى القبائل كانت حليلة؟

- من قبيلة بنى سعد.

- فكيف رضيت بإرضاعه بعد أن انصرفت عنه؟

- أراد الله سبحانه ألا تجد حليلة أحدا من أطفال الأغنياء
ترضعه، فرأت أن رحلتها غير مثمرة، ولم تشأ أن تعود إلى
البادية بغير طفل ترضعه.

- لم لا تقول: أن الله قد ألهمها العطف، وقذف في قلبها
الرحمة له والحدب عليه؟

- بلى .. وقد حبيب إليها ذلك الواجب الإنساني النبيل.
وكافأها الله على صنعها أجزل المكافأة.

- أى مكافأة تعنى؟

- لم تكد تصحبه معها حتى يسر الله تعالى لها سبيل الخير،
لقد فتح لها ذلك الباب .. كل أبواب الخير والبركة. وجلب لها
كل أسباب الرخاء والنعيم.

- كافأها الله على معروفها، فسمن أغنامها، وكثر بناتها، وأفاء عليها.

من المحفوظات الكيلانية:

ظلى

أنت يا ظلى رفيق عمرى

أنت يا ظلى عجيب الأمر

كم تطول:

ثم تبدو غاية فى القصر

أو تنزل:

ثم تعدو بعدها في أثرى

إن ظلى مشبهى كل الشبه

كلما استيقظت صباحا ينتبه

قافزا خلفي طورا ساكتا

دائما لم يدر معنى للكلام

حركاتي كلها يأتي بها

لا يبالى سهلها من صعبها

أنت قد حيرتني في أمري

أنت خلفي حين أجزى تجرى

أنت إن أبطىء... ببطىء السير

أى نفع لك؟ لست أدري

فخر المجد

أنا ما زلت تلميذا صغيرا

ولكنى على صغرى مجد

أسير إلى العلا سيرا حثيثا

وأنشط نحو غايتها وأغدو

وليس يضيرني صغرى إذا لم

يثبطني عن العلياء جهد

وليس بِنَافعى طول وعرض

إذا لم يغفلنى فهم ورشد

فليس يقاس إنسان بشبر

ليعرف قدره، إن جد جد

ونبت القمح مرتفع قليلا

ولكن، هل له فى النفع حد؟

هو القوت الذى نحيا جميعا

به، وهو الذى ما منه بد

وقد يعلو سنابله نبات

قليل النفع يعجب حين يبدو

وكم عود من القصب اعتلاه

وما هو رفعة للممح ند

وفخر المرء علم يبتغيه

وإخلاص يحلّيه، ورفد

وسوف أكون مثل القمح نفعا

وقدما أحرز السبق المجد

نعم، وأحب فعل الخير جهدي

وأسهر للنعلا والمجد، بتعد

وتدرك همتي شرفا ومجدا

وحسبي غاية... شرف ومجد

صحبة الكرام

شقائق النعمان ضمت مرة

في طاقة للزهر والقرنفل

فاكتسبت في لحظة من طيبه

ومن يصاحب ذا كمال يكمل

مفتاح القراءة:

كم من حديث معجب شائق

تتلوه أمي وأبي من كتاب

هذا عجيب، فمتى أغتدى
مثلهما أقرأ بين الصحاب
كم ذا أجيل العين فى صفحة
منقبا لا يعترينى فتور
وأنتنى من غير جدوى وما
فهمت شيئا بين تلك السطور
لكن أمتى إذ رأت حيرتى
قالت: إذا ما رمت هذا المرام
فهاك مفتاحا لأسراره
هاك كتابا فيه سر الكلام
فيه حروف الهجاء
تبدأ بالأحرف فيه، ولا
تلبث حتى تقرأ المفردات
وتقرأ الأسطر من بعدها
فيصبح الصعب من الهيئات
وبعد جد واجتهاد ترى
أنك تتلو مثلنا فى الكتاب

تقرأ ما يشجيك من قصة

ومن حديث معجب مستطاب

ففى أى وقت تشاء

الجمال الساحر

حسن هذا الخد أن قيس به

كل حسن كان عنه قاصرا

كم شمس قد خبت أضواؤها

حين لاح الخد نورا باهرا

فجمال الوجه والأخلاق قد

سطعا للناس صبحا سافرا

منطق حلو، وحسن رائع

جمعا هذا الجمال الساحرا

وطنيته

عاصر الأستاذ الكيلانى، النهضة الفكرية منذ بدايتها،

وساهم فيها منذ قيامها، وأودى فى سبيلها.

ولما اشتعلت الثورة المصرية، قذف فى أتونها بقصائد من

الشعر الحماسى الجديد، دلالة على وطنيته الصادقة. ولقد

أجرت إحدى الصحف استفتاء حول العوامل التي تحقق الحرية
للوطن . فأجاب الكيلاني : إنى أترك الجواب للبحترى ، شاعرنا
العربى العظيم ، بما أبدع من صور المتناحرين والمتباغضين ،
وصور ما يعانيه قومه ، من نكبات التفرق والانقسام والتناحر
والبغضاء ، حتى أصبحت الصدور تغلى من الغيظ غليان
المرجل . والبحترى يقول فى هذا المعنى :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها

بأحقادها ، حتى تضيق دروعها

تقتل من وتر أعز نفوسها

عليها بأيدي ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوما ، ففاضت دماؤها

تذكرت القرى ففاضت دموعها

شواجر أرماح ، تقطع بينها

شواجر أرحام ملوم قطوعها

إذا افترقوا عن وقعة جمعتهمو

لأخرى : دماء ما بطل نجيعها

تذم الفتاة الرود شيمة بعلمها
إذا بات، دون الثأر وهو ضجيعها
حمية شعب جاهلى، وعزة
كليبية أعياء الرجال خضوعها!

فالتفرق.. كما ترون .. أصل الاحتلال، ومصدر البلاء.
والاتحاد وسيلة الاستقلال، ومحقق الجلاء، ولا معدى عن
الاتحاد بأشمل معانيه وأوسع حدوده . وتوحيد الجهود والنيات،
والأهواء والأهداف.

وللكيلانى القصيدة التالية:

يانيل، قد قام منا للعلا داعى
من بعد اغفاءة طالت وتهجاع
يا نيل، إنا أفقنا بعد نومتنا
نبنى العلا بفؤاد غير مرتاع
يارب شيخ حناه الدهر أقصده
سهم الردى بين إحناء وأضلاع
قد غيبوه فلم نسمع له خبرا
وأزهقوا روحه لم ينعه الناعى

فاضت إلى الله، تشكو ظلم قاتلها

وجور وغد، لئيم الطبع، خداع

قالوا: أولئك أغنام مضللة

يلم أشتاتها من عندنا راع

قلنا: بنو النيل آساد مجمعة

فرقة موهم بأحزاب وأشياء

نعم، وواقعة ما بينهم احنا

بذرتموها بأرض ذات أمراع

فأخصبت ونمت ابان نومتنا

وقد أفقنا، فذوقوا خيبة الساعى

منزلته بين معاصريه:

تجد الأمم الحية كلما نبغ فيها أحد أبنائها فى أية ناحية من
نواحي عظمتها، أشادت بذكره، وأقامت له حفلات التكريم:
حكومة وشعبا، تقديرا للفضل، وتشجيعا على الازدياد فيه،
وايذانا بأن النبوغ يجد من الاجلال والاكرام المحل العظيم،
فيجرى الكرام على آثاره، وينبه الغافلون، ويعمل العاملون.

وإني سأسرد كلمة من مجموع كلمات عدة ألقى في حفل
تكريم «كامل كيلاني» سنة ١٩٣٤ ، إذ نادوه نقيباً للأدباء.

قال كاتبها حين ذاك:

لقد رأينا مصر، وقد أخذت، منذ نصف قرن أو أكثر،
تنفض عنها غبار الخمول الذي خلفته عهود الظلم والجهالة،
وظهر فيها أفراد ضربوا في نواحي العظمة بسهم، وأفادوا
ببلادهم، بما وهب لهم من اخلاص وعبقريّة، فأحلتهم في
سويدائهم، وأوسعت لهم على صفحاتها، يخطون فيها جليل ما
صنعوا، فيكون لهم في ميدان الشرف ذلك المجد الوطيد.

على أن الأستاذ (كامل كيلاني) فاز بالقدر المعلى في
الأدب والفن.

ثم إن أشعاره تقتضينا أن نكرمه في شخصه.

هذا إلى أن التأليف والترجمة، من اللغات الحية التي أضاف
بها آثاراً وروائع من أقلام كتاب الغرب، وذخائر من نفائسهم
إلى لغتنا الشريفة - كل ذلك نقله بأسلوب ممتع - فخدم اللغة
والبلاد خدمات، مهما أطنب القلم في البيان، فلن يبلغ غاية
الوصف.

وهذه كتب الأدب التي قدمها نابغتنا للمتأدبين بعد أن
ألبسها من عبقريته، وخلع عليها من ثمار قريحته، فقرب
مواردها، وجعل تذوقها على طرف الثمام، حتى جعل أمثال:
«ابن الرومي» و «المعري» و «ابن زيدون» يخاطبون هذا العصر
بلغة يفهمها الكبير والصغير.

هذا شأن (كامل كيلاني) في هذه النواحي.

أما شأنه في القصص، وفيما يتعلق بأبنائنا.. رجال الغد،
فعجب أي عجب!

وما الأقمار في بهائها، أو الشهباء في عليائها، بأكبر شهرة،
وأجل نفعا من قصص (كامل كيلاني) المفيدة.

فصار اسمه مرادفا لآية التأليف. وقد فتح لنا فتحا في تربية
الأطفال، على خير مثال.

ثم تابع المحدث في حفلة التكریم حديثه قائلا:

وحسبنا شهادة بعض أولئك الذين ينفون عليه فضله
ومكانته. فقد أنطقهم الله بالحق انطاقا سجل على صفحات
الخلود.

والإنسان يحار: هل يهنئه على ما امتاز به من حسن
الاختيار وبراعة الأسلوب، أو يهنئه بما هيا لأبنائنا من كتب

وقصص، كان لهما أثر طيب واضح فى تنشئة عقولهم، أو يهنئه على وفرة نشاط، وجهت مجهوده وجهات .. كلها صالح ومثمر، أو يهنئه بنبوغه فى عديد اللغات ونقله لنا منها مشكاة وضاعة مصابيحها، فكانت للأدباء والمتأدبين نهجا قويا فى تربية الذوق، واتساع دائرة الخيال وتزويده بثروة علمية جليلة؟

والحق... أننا نهنئه بهذا جميعا، ونهنىء به وطننا أنجبه كما أنجب كثيرا من الموهبين، وخلد العاملين.

الفصل الرابع

الرائد يتحدث

التربية وضرب الأمثال:

كثيرا ما لجأ أبى، فى تربيتى، إلى ضرب الأمثال ورواية القصص، أذكر لكم أن بعض أشقياء الصبية أغرانى بتسلق الترام، وأنا صغير، فرأنى أبى، وأنا أفعل ذلك، ولم أره .

فلما عاد إلى المنزل، قال لى:

«لقد حدث اليوم... يا ولدى... أمر عجيب. فقد هوى ولد شقى تحت عجلات الترام، فقطعته شطرين، وظل الناس يلعنونه، ويلعنون أهله.

وهنا ذكرتكم يا ولدى، فحمدت الله على حسن أدبك، وبعدك عن هذه الدنيا. أقول لحضراتكم : إن الأرض كادت تغوص بى، وكان هذا آخر عهدى بهذا العمل الممقوت.

وفى ذات يوم قلت له.. وكنت طفلا: «إنى لأخشى العفاريت والحشرات المؤذية، حين أصعد سلم البيت فى ظلام الليل» .

فقال لى:

«من الذى يحرسك وأنت نائم؟» .

قلت: «هو الله» .

قال: «أتظن أن من يحرسك وأنت نائم، لا يحرسك وأنت يقظان؟» .

فكان ذلك آخر عهدى بالخوف .

ولقد قرأ لى أبى كثيرا من القصص فى فجر حياتى كان لها أثر كبير فى نفسى وأدبى وخيالى .

القدوة الحسنة:

وجدت أبى، وأنا طفل، لا يكاد يترك الكتاب من يده . فأحببت أن أكون مثله، وقلدته فى ذلك، حتى أصبح ذلك دأبى إلى الآن . وانقلب التطبع طبعا أصيلا .

ووجدته يصل الرحم، فقلدته فى ذلك .

ولو رأيته ... على عكس هذه الصفات ... فقلدته فيها كذلك، وما أصدق قول القائل:

مشى الطاووس يوما باعوجاج فقلد شكل مشيته بلوه
فقال: علام تختالون؟ قالوا: بدأت به ونحن مقلدوه
فخالف سيرك المعوج واعدل فيانا.. إن عدلت.. معدلوه
أما تدري أبانا كل فرع يجارى بالخطى من أدبوه
وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

روائع من أحاديث جحا:

نشأت - منذ طفولتي - أحب الكتب. وقدنما هذا الحب فى
نفسى حتى أصبح كلفا وهياما. وقد فجعنى كثير من أصدقائى
فى كتب لا أستغنى عنها، واستأثروا بها دونى. ورأيت -
والحاجة تفتق الحيلة - أن أضع حدا حاسما لهذا العبث. وظللت
أتلص الحجب والمعاذير، حتى اهتديت إلى حجة بارعة أعذر
بها لكل صديق - مهما بلغت منزلته من نفسى - لأتخلص من
إعارته أى كتاب يطلب.

ولم أخترع هذه الحجة اختراعا، ولكننى اقتبستها من منطق
(جحا) وما أبرع هذا المنطق فى التخلص من مآزق الحياة ومشاكلها المعقدة!
فقد زعموا أن (جحا) اضطر إلى الخطابة مرة. فقال
لسامعيه:

فقالوا: (لا)

فالتفت إليهم ساخرا، وقال:

إذن فأنتم جهلاء، وليس في قدرتي أن أخطب في الجهلاء.
فلما أخرج في موقف ثان: أصر سامعوه على أن يقولوا له
عكس ما أجابوه به في المرة الأولى، فما كاد يقول لهم:
«أتعرفون ما أقوله لكم؟».

حتى قالوا له: «نعم».

فنزل عن منصة الخطابة، وقال لهم:

إذن فأنتم في غير حاجة إلى ما أقول!

فلما أخرج للمرة الثالثة، أصر سامعوه على أن ينقسموا
فريقين: أحدهما يقول نعم، والآخر يقول: لا.

وما كادوا يفعلون حتى التفت إليهم جحا هازئا، وقال: (الآن
علمت أن فريقا يعلم ما أقول، وفريقا يجهله، فليخبر من علم..
من لم يعلم!).

وهكذا خرج بلباقته من تلك المآزق الحرجة.

وقد اخترعت حجة تدفع عنى إلحاف المستعيرين،
واقتبستها من منطق (جحا) البارع، فكنت أقول لكل من تحدثه
نفسه أن يفجئنى فى كتاب، قائلا:

«إن هذا الكتاب رخيص الثمن، فما أيسر عليك أن تشتريه .
وإن كان ثمنه فادحا، فما أجدرك أن تتركه لى، ولا تفجئنى
فيه فليس فى قدرتى أن أشتريه مرة أخرى . ولست أستطيع أن
أستغنى عنه يوما واحدا» .

طريقة احتفاظه بالكتب:

وهكذا استطعت أن أحتفظ بكتبى كاملة غير منقوصة، ونما
عدد الكتب إلى أن ضجر بها أهل بيتى، وضجرت بها معهم،
حتى كنت أفضل - فى بعض الأحيان - أن أشتري الكتاب الذى
تعرض إليه حاجتى، على أن أبحث عنه بين تلك الأكداس .

وبعد افتكار طويل اهتديت إلى طريقة أخرى، تيسر على
البحث، وتقطع أمل كل مستعير، تلك هى أنى قسمت الكتب
إلى مجاميع، تضم كل مجموعة منها عدة كتب، يصعب
حملها، ويستحيل التفريط فيها . وربما وقفت فى فترات راحتى
بين قماطر الكتب، وأجلت لحاظى فى محتوياتها، وأطلت
تأملى، وأنا مأخوذ بروعتها كما يؤخذ البستاني بروعة
الأزهار .

وانى لأذكر أننى وقفت - ذات يوم - أتخير كتاباً أقرؤه على
عادتى فاسترعى بصرى مجلد ضخمة يحتوى ديوانى (الشرىف
الرضى) و (البحتىرى) فعجبت من ضخامته، وقلت فى نفسى:
(هذا مجلد شرقى ضخم، يحوى مئات من الصفحات، فى
كل صفحة منها أسطر كثيرة، وفى كل سطر منها فكرة رائعة،
أخرجها ذهن ممتاز، وصاغتها شاعرية فذة. فأى كنز حافل
هذا المجلد الضخم؟).

وذكرت بعض المفتونين الذين يهتمون بالأدب العربى
بالعقم، ويفترون على أفذاذ العرب أنهم سطحيون، وهم لم
يقرءوا من كل هذه الكنوز إلا مختارات متفرقة مشوهة، لم
يوفق مختارها فى شىء كما وفقوا فى الاهتداء إلى مجموعة
يجدر بهم أن يطلقوا عليها اسم (مجموعة مختارة من الشعر
السخيف!) وقلت فى نفسى:

(لعل هؤلاء الأدباء الناشئين المفتونين بالأدب الغربى -
الأدب الغربى وحده - يقبلون على هذه الكنوز الشرقىة،
ويمتعون أنفسهم بما فيها من طرف وروائع فيعرفوا أى تراث
خلف لنا أسلافنا العرب؟).

ومازلت غارقاً فى هذه الذكريات حتى قطعتها على فكرة طارئة.

فقد بدأت نفسى تتنمر، وخشيت أن أرمى بالاسراف
والاغراق والتحمس الكاذب للعرب وللكتاب العرب. فلم أطق
صبرا على هذه التهمة، وأردت أن أبرر- بينى وبين نفسى
على الأقل- ما ذهبت إليه من تمجيد هذه الروائع، وأثبتت
بالبرهان أن فى كل سطر من هذه الصفحات جمالا
أخاذا، فتعمدت ألا اختار شيئا، وأصررت على أن أفتح هذا
المجلد الضخم، وأقرأ أول ما يقع عليه نظرى من الشعر، وأقيده
فى حافظتى، وما كدت أفعل حتى طالعنى قول (الشريف
الرضى):

غرست غراسا كنت أرجو لقاحها وأمل يوما أن تطيب جناتها
فإن أثمرت لى غير ما كنت آملا فلا ذئب لى إن حنظلت نخلاتها
فغرقت فى عالم من السحر، ثم قرأت بعد هذين البيتين
الآبيات التالية:

من يكن زائرى يجدنى مقيما أتبع الفائتات بالرائعات
من ندامى- على الهموم- فعود يدعمون الأذقان بالراحات
كلما أذرفوا الدمع أمدا هم دواعى الهموم بالعبرات
فتركت الكتاب، وقلت فى نفسى:

(حسبى من القلادة ما أحاط بالعنق)، ورحلت منتشيا من
فرط السرور بما قرأت، وقد اقتنعت نفسى بأن حماستى للعرب
وآثار العرب وروائع العرب، حماسة رشيدة، لا أثر للأسراف
والتعصب فيها.

وكما أننى أقرأ روائع الفحول من أفذاذ الشرق... من غير
أن أكلف نفسى الاختيار... لو ثوقى من إبداعهم دائما، فإننى
شديد الولع - كذلك - برؤية أى بلد شرقى، من غير أن أعنى
نفسى بتخيره، لأننى أحس لكل بلد من البلاد الشرقية روعة لا
تقل عما أحسه لغيره من هذه البلاد.

وكما أننى أمقت المفاضلة بين الشعراء، والمفاضلة بين
الكتاب، والمفاضلة بين القصائد، فإننى أمقت - كذلك -
المفاضلة بين البلدان! وليس من الانصاف أن تفاضل بين
حسناوين، قد كملت محاسنهما، ويرع جمالهما، واستبد
سحرهما. ولكن من البر بنفسك أن تتمتع بحسنيهما.

كيف نحب القراءة إلى الأطفال؟

زعموا أن ثلاثة أمراء، إخوة أشقاء، خرجوا يتنافسون فى
مهر بنت عمهم السلطان، بعد أن تواعدوا على الاجتماع آخر
العام فى مكان بعينه، ليروا من يظفر بأنفس هدية للأميرة.

فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحري، يرى فيه
الناظر كل ما يدور بخلده، ولو كان في أقاصى الدنيا.

وظفر ثانيهم ببساط سحري، يحمل راكبه مخلقا به في كل
جو من الأجواء، فيبلغه غايته في لحظات يسيرة.

وظفر ثالثهم بتفاحة شافية، تبرىء من السم وتعيد الحياة
إلى من أشرف على التلف.

ونظروا في المنظار فإذا الأميرة على فراش الموت تحتضر،
فأسرعوا إلى البساط، فإذا بهم عندها في الحال، وأدنوا التفاحة
منها فشفيت على الفور. وحاولوا أن يعرفوا أيهم صاحب
الفضل في شفائها فلم يهتدوا إليه.

فلولا المنظار ما عرفوا مرضها الخطير. ولولا البساط لهلك
قبل أن يصلوا إليها. ولولا التفاحة الشافية ما كان لوصولهم
فائدة. فإذا نقصت واحدة من هدايا الأسطورة ضاع كل أمل
في شفاء الأميرة.

وإن في هذه القصة مثلا دقيقا يوضح ما يجب على من
يتصدى للكتابة للأطفال أن يهدف إليه، ويجعله نصب عينيه.

أن تحبب الكتاب إلى نفس الطفل، أول طريق لتمكينه من

القراءة ومتى ظفر بهذه الغاية، ظفر بالمنظار السحري، الذى يرى فيه صاحبه كل ما يريد أن يراه .

أما الأسلوب القصصى الساحر، فهو بساط الريح الذى ينتقل بالقارئ إلى أبعد الآفاق الفكرية، فى لحظات يسيرة، ويطير به على أجنحة الخيال البديع، محلقة فى سماء الحقيقة، دون أن يلحق به كلال ولا جهد.

أما التفاحة الشافية، فتتمثل فيها ما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية رائعة، تشفى سموم الجهالة، وتبرىء من النزعات العارمة التى تعجل بصاحبها إلى الهلاك وتقذف به .

ولنقف عند أول هذه الأهداف الجليلة لحظة قصيرة . فما تتسع هذه العجالة الخاطفة لغيرها .

لنقف عند الخطوة الأولى، وهى تحبيب القراءة إلى الطفل، وتمكين الفصحى من نفسه، وحمايته مما يغمره من البيان المشوه المضطرب، وتجنيبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذى كاد يغرقنا فى مستهل نشأتنا الثقافية، وما زال يغمر الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد، فيقضى على مواهبهم الفنية أو يكاد فى زمن حداثتهم . ولنهيء لهم به بيانا عربيا خالصا، يطبعهم على الفصحى منذ طفولتهم

الباكرة . حتى إذا كبروا صارت لهم الفصحى ، كما كانت
لغيرهم من أسلاف العرب فى عصور القوة الأولى ، سليقة
وطبعاً ، وأصبح البيان العربى متأصلاً فى نفوسهم عادة ومملكة .
وتخلصوا من العجمة المتفشية بين شباب العصر وفتيته .

أما الطريقة إلى هذا الحلم الجميل ، فتحقيقها ليسور غير
مستحيل : إننا إذا راقبنا كلام الطفل ، وهو فى مستهل طفولته ،
رأيناه يلجأ إلى تكرار الجمل . إذا قص علينا خبراً ، كأنما يتثبت
من معانيها فى ألفاظها المكررة .

فلماذا لا نكتب ، وهو فى هذه السن ، محاكين أسلوبه
الطبيعى ، فى تكرار الجمل والألفاظ ، لنثبت المعانى فى ذهنه
تثبيتاً ؟

ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة لنسهل عليه قراءتها ؟
ذلكم أجدرنا وأليق ، فإن لكل مقام مقالا .

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل - فى هذه المرحلة - ملول ،
يتهيب الكتاب . فلننزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبب إليه
الكتاب بكل وسيلة ولنبسط له الأسلوب تبسيطاً ، مكثرين من
الصور الجذابة الشائقة ، التى تستدعى انتباهه ، لنشعره أن
الكتاب تحفة تهدى إليه اهداء ، وليس واجباً يكلفه تكليفاً . فإن

الطفل - إذا ساء ظنه بالكتاب - صعب اجتذابه إليه بعد نفوره منه .

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الأطفال، توفيقا عجيبا، في تبغيض القراءة إلى نفوسهم فأصبحوا يمقتون الكتاب، ويهربون من قراءته، لأن المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته . ولم ينزلوا إلى مستوى مدارك الأطفال .

ومن الانصاف أن نقرر بصراحة أنهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أو منهج بعينه، وأنهم في تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية تنظيم الكتاب وتآلف أجزائه، لأنهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب كيفما أتفق أن يتصيدوها فيخرج الكتاب خليطا مضطربا لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها، ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

إن الطفل ميال بطبعه إلى الحكايات والقصص، وهو بغريزته مفتون برؤية الصور الجذابة . فلنختر له منها ما يناسب سنه، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره .

ولنقصر جهدنا في استعمال الألفاظ الجديدة، ولنؤلف له من الألفاظ القليلة التي يقرأها في بضعة أسطر عدة صفحات

كاملة، لندخل في روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم،
وليست شاقة مضنية، كما ألفها في الكتب الأخرى. بل هي
سهلة ميسورة، وهي إلى سهولتها ويسرها ممتعة شائقة، تملأ
نفسه بهجة وانشراحا.

وثمة يشعر الطفل بهمة في نفسه. إذ يرى أنه يقرأ صفحة
كاملة بجهد يسير. فهو لن يتم قراءة السطر الأول حتى يسهل
عليه قراءة السطر الثاني والثالث والرابع وهكذا. لأن الألفاظ لا
تكاد تتغير في الجمل إلا بمقدار يسير.

وليجعل المربي همه في قصصه، قصة الرجل الذي كان
يحمل الثور صاعدا السلم، وهابطا به دركه، دون أن يبدو عليه
شيء من آثار التعب والجهد، فلما سئل في هذا أجاب قائلا:

لقد تعودت حمل الثور منذ ولادته كل صباح. وما زلت
أكبر ويكبر معي الثور ويزداد نمونا كل يوم زيادة قليلة
مضطردة، حتى اكتمل نماؤنا. ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد
يوما عما كان في سابقه. ولم أحس له ثقلا إلى اليوم.

ثم إنه على المربي أن يبدأ بتسليية الطفل، متدرجا به كل
يوم تدرجا بطيئا، لا يكاد يشعر أن له أثرا، مستعينا على هذا
الغرض بالصور الملونة الجذابة، والشكل الكامل، والألفاظ

السهولة . حتى إذا اطمأن إلى الأسلوب السهل ، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة ، انتقل به إلى المرحلة التالية ، فمزج له التسلية بالفائدة .

ثم عليه أن ينتقل به خطوة بعد خطوة ، حتى يرى فى فنون المعرفة وحدها متعة وتسلية لا يعدلها شىء من فنون المتع وضروب التسلية .

ثم إن على المربي فى قصصه ، تحبيب الفصحى إليه ، وتعويده النطق بالصحيح من الألفاظ ، وتدريبه على الأخذ بالصحيح من الآراء ، فإن الخطأ اللفظى ، كالخطأ المعنوى . فإذا انطبع أحدهما أو كلاهما فى ذهن الطفل صعب اقتلاعه فى قابل أيامه . ولا معدى للمربي عن ترغيبه - بكل ما يملك من الوسائل - فى الأسلوب الرائع والمثل الصالح فلا يسمح له بعبارة واحدة ، تقلل من شأن لغته ، أو تصغر من جلال القيم الخلقية .

إن تحبيب الكتاب ، وتخير الأسلوب الصالح ، وتثبيت الفضائل فى نفس الطفل هى الأهداف الثلاثة التى ترمى إليها تربية الأطفال بالقصص . ولا بد من اجتماعها ، لبلوغ الغاية المرجوة ، كما اجتمعت هدايا الأمراء الثلاثة لشفاء الأميرة .

مشاكل المجتمع:

وجهت مجلة الأثنين إلى الأستاذ (كامل كيلاى) خطابا من شاب يائس، ليجيب عن مشكلته.

وفيما يلى نص الخطاب والإجابة عنه:

لا أعرف أبى.

هذه مشكلة شاب، تكاد تعصف به الحيرة، لأنه لا يدري ابن من هو؟ فأرسل يسألنا الهداية والارشاد.

وهذه هى رسالته وهذا هو رد الأستاذ كامل كيلاى عليها:

ابن من أنا؟

سؤال لم يخطر على بالى يوما أنى سأوجهه إلى نفسى، ولكن هأنذا أوجهه اليوم، لا إلى نفسى فحسب، ولكن إليك.

وإذا كنت أكتب إليك، فأنا إذن أوجه سؤالى إلى كل فرد فى الشعب كذلك.

لقد نشأت وشبيت وأنا لا أعرف لى أبا وأما.

وفى نشأتى وشبابى ذقت من ألوان الحنان - فى أحضان والدين كريمين - مالا يطمع وليد فى أكثر منه.

ولعله بفضل هذا الحنان وحده كان نجاحى فى دراستى
حتى حصلت على (بكالوريوس) كلية الزراعة . وكان توفيقى
فى حياتى العملية .

لكن القدر ساق إلى من أطلعنى على السر الرهيب . فوقفت
على الحقيقة ، وإذا الحياة تصغر فى عينى ، لأننى صغرت فى عينى نفسى !
إنى مجهول الأصل يا سيدى ، لا يعرف أحد والدى ، وهذان
الكريمان اللذان منحانى اسميهما ، وحنانهما ، إنما منحانى كل
ذلك احتسابا ، بعد أن تسلمانى من أيد ليست بينها أيدى أمى
وأبى ، لأنها أيدى موظفى الملجأ .

وبدأت - منذ عرفت هذه الحقيقة الفاجعة - أحس صراعا
داخليا عنيفا ، وأشعر بالخجل إزاء كل إنسان .

وكيف لا ؟ ألسنت لقيطا ؟

فبأى وجه إذن ألقى الشرفاء ، وأتحدث إليهم ؟

وهذان الكريمان - اللذان غمرنى حنانهما وفضلهما - ما
ذنبيهما حتى يتحملانى بعد اليوم ويشقيا معى ؟

وطغت على أفكارى موجة تساؤل عاتية . وأنا - فى كل
حين - أتساءل : ترى من أنا ؟ وكيف ولدت ؟ وأين أمى ؟

أتراها الآن ذكرى فى ضمير الثرى؟ ومن يدرى؟

ربما كانت - حتى اليوم - حية تقاسى مرارة البؤس، خادمة
فى أحد البيوت، أو متسولة تسأل الناس، فيعطونها أو يحرمونها
ويحتقرونها على الحالين. وقد أكون أنا من بينهم!

إنى بائس معذب الضمير ياسيدى، أرى الحياة ظلاما فى
ظلام وأكاد أفقد تعقلى وإيمانى كلما شرد فكرى فى مشكلتى
الخطيرة..

بريك يا سيدى: هل لديك لمثل حالى علاج؟

وهل من حقى أن أعيش، وأن أرفع رأسى، كسائر الناس؟

لا تعذب نفسك!

رد الأستاذ (كامل كيلانى):

أيها الشاب المعذب، إننى أربأ بشاب فى مثل ثقافتك أن
يعذب نفسه بهذه الأوهام، فمن أين لك أن أمك لم تكن سيدة
شريفة، أو أن فقر والدك أو فقدته هو الذى انتهى بك إلى
الملجأ؟

ومالك لا تشكر الله الذى وهب لك هذين الكريمين، فرياك
وعلماك، ومنحكاك حبهما خالصا؟

ولماذا لا تبادلهما الحب، فتسعدهما، كما أسعداك؟

لقد طلبت منا علاجاً، فإذا كنت جادا في طلبك فإن خير علاج لمثلك أن تسرع بالزواج. ففي حنان الزوجة ما يعوضك عن الحنان الذي فقدته، وفي تبعات الزواج ما يشغلك عن التفكير في أوهامك.

وحين تصير أباً فلن تعود إليك هذه الهواجس التي تلح عليك وتقض مضجعتك، إذ يتحول كل اهتمامك حينئذ إلى أولادك، ويشغلك التفكير في مستقبلهم عن كل شيء حتى نفسك!

إن ذلك القلق الذي تسميه.. خطأ (عذاب الضمير) ليس إلا أثراً للصدمة التي منيت بها، وسيزول حتماً. أما ضميرك فما الذي يقلقه أو يعذبه، وما جنيت شيئاً تؤاخذ عليه؟

وإن أردت أن تحسن إلى أمك المجهولة التي تتوهم أنها - الآن - حية تعاني بؤس الحياة - ففي وسعك أن تحسن إليها في شخص كل بائس ومحروم.

بقيت نظرة الناس إليك، وأحب أن أؤكد أن الناس سيحكمون على شخصك وعملك. فلن يقدرók أو يحتقروك لأنك ابن فلان أو لست ابن فلان. على أن العاقل لا يهتم إلا بكلام العقلاء، وهؤلاء أبعد ما يكونون عما تخافه وتخشاه!

إتخذ أيها العزيز من هذه الثورة ثروة، وحول سخطك قوة
تدفعك إلى الأمام. وعليك أن يغلى دمك بنار الاندفاع في
العمل. فهذا خير من أن يغلى بنار الغيظ والحقْد على نفسك
وأنت لم تجن ذنبا.

وثق أنك ستكون موضع احترام الجميع وتقديرهم. فقديمًا قال الشاعر:
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى سدد
الله خطاك. وألهمك الصواب.

أسئلة صحفية

لقد سألتى كثير من الصحفيين : (أى بلد تفضل؟) فكان
جوابى دائما: (أن أجمل ما رأيته هو كل بلد رأيته).

ولقد كان هذا السؤال - كلما ألقى على - يذكرنى بقصة ذلك
العربى المنصف حين طلب إليه أحد الخلفاء أن يفاضل بين
نوعين من الحلوى. فسأل الخليفة أن يحضرهما إليه، ليكون
حكمه أصدق وأدق وأخذ يتذوق هذا مرة، وذاك مرة. ثم التفت
إلى الخليفة - آخر الأمر - وقد تملكته الحيرة، وقال:

(كلما أردت أن أحكم لأحدهما - يا أمير المؤمنين - قام لى
الآخر فأدلى بحجته!).

وهكذا يشعر المنصف، كلما حاول أن يفاضل بين ربات
الجمال، أو بين فحول الكتاب، أو بين أمهات المدن!

ففى دمشق، وببيروت، والقدس، وبافا، جمال أخاذ.
وذكريات عزيزة، وأدباء فحول، وشباب يلتهبون غيرة
وحماسة وإخلاصا، وفيها عقول كبيرة، ونفوس عامرة
بالإيمان، زاخرة بحب الوطن العربى، الذى يجمع بين أبناء
العربية، على تنائى بلادهم، واختلاف نزعاتهم، وشتى
شعوبهم.

وفى تلك البلاد الحبيبة - من روائع الطبيعة - ما يفجر بهجة
وانشراحا. وقد لقيت من زعمائها وقادة الرأى فيها أفذاذا.
وسمعت منهم أحاديث معجبة، لا تكفى هذه الكلمات الموجزة
لسرد واحد منها وتحليله وإظهار مواطن قوته، ومناحى جلاله
وروعته...

ومن حسن الملاءمة والانسجام أنك ترى روعة المناظر فى
هذه البلاد متسقة مع صفاء نفوس أهلها، وجمال أخلاقهم،
وحسن عشرتهم.

وقال الكيلانى: إن شعورى نحو مؤلفاتى شعور عجيب حقا.
فإننى لا أكاد أفرغ من إظهار كتاب، حتى أشتغل بغيره،

وينصرف كل جهدى وتفكيرى إلى المؤلف الجديد، فلا أكاد أفكر فى المؤلفات القديمة .

وكثيرا ما أتحاشاها وأهرب من قراءتها بعد طبعها، وربما ساقط المصادفات إلى، كتابا منها، ولم أجد أمامى غيره، فأفتح الكتاب، مؤثرا القراءة فيه على البقاء وحدى بدون قراءة، ولا أكاد أقرأ فيه حتى آنس به وأطرب لقراءته كأنى قارئ غريب، وربما قرأت فصولا دون أن أشعر بمال . حتى إذا طويت الكتاب عاودنى شعورى القديم، فما أود النظر إليه .

وقال الكيلانى: إن حرب اللغة العربية: بين الفصحى والعامية، تلك التى كان يكلف بها الناس بالأمس إنما هى جزء من خطة ضخمة يدبرها الاستعمار، ويدعولها .

فقد سمم المستعمر جميع الآبار الثقافية، واستطاعت الثورة أن تحطم خططه، خطة بعد أخرى، إلى غير رجعة .

وكانت الدعوة إلى اللغة العامية، من بين هذه الخطط، التى حاربها الكيلانى، منذ عام ١٩٣٠م، عندما عقدت مناظرة ضخمة، بين (إبراهيم رمزى) و (لطفى جمعة) . وحضرها طائفة من كبار الأدباء، أمثال شوقى، والهلل باوى، وصادق عنبر، ومحمد الهراوى .

وقد انتصر يومها الحق بعد كلمة صريحة، علق بها على
كلمتى المتناظرين، وفند فيها العبارات التى استغلت للدعوة إلى
العامية.

الفصل الخامس

الكيلانى الطائف

إنها ظاهرة غريبة، لوحظت على الأستاذ الكيلانى، فى أخريات حياته، على الرغم من تحمله الآلام والسقام! فكنا نجده يخرج مع أحد رفاقه وسائق سيارته فى الصباح، لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، ويحسن فى طريقه على البائسين والمساكين، وكأنه زهد الدنيا. وإذا ما تذكر حقوق إخوانه وزملائه نحوه فى تلك اللحظات خرج فى المساء إلى صديقه (فلان) فإذا وجدته جالس معه، أو طلب اصطحابه معه، فيأخذه معه فى عربته، لكي يذهب معه إلى صديق آخر، فإذا لم يجده، ترك له رسالة بسؤاله عنه، وأنه يريد مقابله. وأنه إن لم يتمكن الصديق من رؤيته، فإنه يطلب إليه الدعاء. وكان عزمه وهدفه الاطمئنان على جميع خلصائه وأصدقائه، وكأنه يستودع فى هذه المرة كل من يراه، ومن لم يره، ويطلب إليهم جميعا السماح والدعاء!

الكلمة الأخيرة:

أحس الكيلانى قرب نهايته. وذلك لما كان يعانيه من آلام المرض فكان رثاؤه لنفسه، قبل أن يرثيه غيره.

حتى قال لأحد الصحفيين فى ذلك الحين:

(أعرف أننى سأموت وأن هذه هى النهاية. وأن هذه هى الساعات الأخيرة فى عمرى. ولقد عشت حياتى أقرأ وجوه الناس، أعرف ما يقولون وما يخفون وقد قرأت فى وجه كل من حولى أننى أموت).

ثم استطرد، فقال:

(إننى أريد أن أقرر حقيقة كبيرة. هى أننى لم آخذ مكانى قط، ذلك بأن الحقد والحسد والغيرة أكلت كل المحاولات التى بذلت لأجل أن أجلس على المقعد الصحيح، وأقف فى المكان المناسب لكننى غفرت لكل الذين أساءوا إلى، ووقفوا حجر عثرة فى طريقى. غفرت لهم وعفوت عنهم. ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضا).

ثم قال

لست أدرى : هل كنت أحس أننى سأموت بهذه السرعة ومازالت كلمات المرحوم محمد على علوية تطن فى أذنى، وكانت دائما تدفعنى لكى أعمل وأكتب بلا راحة ولا توقف؟ قال علوية (باشا) يوما: إن (كامل كيلانى) هو صاحب الثورة

(البيداوجوية) الرشيدة فى عالم الأطفال هذه الكلمات القليلة كانت تكمن وراءها كل جهودى طوال السنوات الماضية).

ثم أضاف إلى ما قال، قوله:

(وهأنذا أموت، واكتبوا على أنى لم أنل كلمة تقدير واحدة، لم أنل جائزة .. مكافأة لى طوال حياتى).

ثم قال.

(لا أذكر فى حياتى أننى قصرت فى واجب نحو صديق. وكان كل الناس أصدقائى، وتمرد على أعدائى. فلم أستطع أن أروضهم).

ثم تابع قوله، فقال:

لقد أحست الدولة بجهودى أخيراً، ويوم قررت كتبى على المدارس، شعرت أن الصبح أوشك أن يطلع، وذهبت لأشكر السيد (كمال الدين حسين) فقال: لا شكر على واجب.

فقلت له : إن الشكر يجب أن يوجه للذين يقومون بالواجب وهذا أول واجب تؤديه الدولة نحوى.

وسكت (كامل كيلانى) قليلا، وحاول أن يحرك يده ليمسح عن جبينه سمة الموت فلم يستطع.

ثم أذاع السر الذى كان يكنه فى نفسه لأول مرة، واستجمع
البقية الباقية من قواه، وقال:

إن الدافع الوحيد لترجمة النص الحرفى لقصة (أبو
خربوش) إلى الإنجليزية، التى نشرتها فى الكتاب - هو أنى
كنت أستمع إلى رائد الثورة المصرية، وبطلها، فى الإذاعة،
وهو يخطب بالإنجليزية. فقلت: من يدرى؟ لعل من بين
الأطفال من سيواجه مثل هذا الموقف يوما ما فكيف لا يعرف
لغة أخرى؟ وترجمت الكتاب، وأصبح يستطيع أن يقرأ بالعربية
والإنجليزية القصة نفسها بلغة بسيطة واضحة.

ثم أدار رأسه على فراش الموت. وقال:

لقد عشت حياتى أتمثل ببيتين من الشعر لم أتخل عنهما.
وكلما تعرضت لمحنة أو مررت بامتحان لم أكن أفعل شيئا إلا أن أرددهما.

واليكم البيتين:

أبدعت فاحتمل المكاره صابرا إن الشقاء الحق أحسن مبدع
وعليك بالفزع المورق، إنه زاد الأبى، ولذة المترفع
وهذان البيتان من تأليفى.

وبعد ساعات قليلة من الادلاء بحديثه الصحفى الأخير،

الذى سجله بنفسه على صفحات التاريخ غلبه الالم، وأحاط به السقم، وألمت به سكرة الموت، فأدار رأسه إلى القبلة، ناطقا بالشهادتين، ثم فارقت روحه جسده، صاعدة إلى بارئها، ذى الجلال والاكرام.

وفاته:

عبر (كامل كيلانى) طريق الحياة، منتقلا إلى جوار ربه مساء يوم الجمعة، لثمان خلون من ربيع الثانى سنة ١٣٧٩، الموافق التاسع من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م. ودفن صباح يوم السبت ١٠/١٠/١٩٥٩، بمدافن الأسرة، عن ثلاثة وستين عاما، حافلة بأجل الأعمال وعظيم الاثر.

فارق (كامل كيلانى) الحياة، بعد جهاد طويل، ومعارك كبيرة، بينه وبين المرض المصنئى، وكانت الحرب بينهما سجالا، وفى النهاية انتصر المرض، وألم به الموت.

فسبحان من له البقاء، وإليه المرجع والمصير.

ترك (الكيلانى) الدنيا، بعد حياة عريضة: حفلت بالعمل الأدبى فى ميادينها المختلفة: النقد والشعر والقصة، وقد صدرت الصحف فى صبيحة يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩، تحمل نعيه، فى عبارات تصور مدى الخسارة التى لحقت

(أسرة القلم) فى عالم البيان، بوفاء (رائد أدب الأطفال) و
(نقيب الأدباء) و (باني الأجيال) .

علم من أعلام الأدب العربى المعاصر، استطاع أن يشق
طريقه بجهده، وأن يكتب صفحة مشرقة من صفحات العمل
الإيجابى البعيد المدى فى حياة الفكر العربى . فقد أسس مدرسة
لفن (قصص الأطفال) . وكانت طفولته منذ بدايته مثلاً يمكن
أن يتخذ منها جاً للتربية المنزلية فى تنشئة الطفل، وتكوين
الرجل .

فمن وفاء (كامل كيلانى) لوالده الشيخ (كيلانى إبراهيم)
أنه أهدى إليه أول كتاب له قائلاً:

(رأيتك، منذ حدثتني، تقرأ الكتاب، وتتخذ صاحبا ورفيقا،
فحببني ذلك إلى الكتاب، ومازلت أحبه إلى اليوم .

ولقد طالما سلكت فى تأديبى طريق الوعظ والقص، فكنت
أول من حبب لى هذه الفكرة . وكان لك الفضل الأول فى
أخذى بهذا الأسلوب وتمكينه من نفسى وكنت نعم القدوة
لابنك فى تربيته ولده (مصطفى وإخوته) .

فمن هذا الأدب الحكيم أخذ - إذن - وسيلة تعليم الأطفال،
عن طريق القصة والقدوة . وعنه أخذ حب الكتاب، والشغف

بالمطالعة والثقافة . وكان من طبيعته أن يبذل غاية جهده في سبيل التجويد والكمال لإنتاجه الأدبي .

وكان (كامل كيلانى) وفيا مخلصا لوالديه . فلم يلق عقابا منهما . حتى أنه قال :

(عشت طفولتى وصباى أنتظر (علقة) من أبى) .

ثم إن تنشئة الرائد بهذه الصورة الواضحة، ورعايته للأطفال فيما بعد، كانتا ومازالتا مما يحبب الأطفال فى (كامل كيلانى) .

وقد كانت وفاته خسارة كبيرة على المجتمع العربى .

مات (كامل كيلانى) وترك للأطفال أدبا حقا، ينير لهم طريق المعرفة، ويوضح لهم معالم الطريق .

ثم إن الشباب الذين كانوا أطفالا، أصبحوا يبقونه أيضا، ويتذكرون فضله عليهم بالأمس واليوم والغد .

وكان (كامل كيلانى) من أبرز كتابنا الذين شاركوا فى النشاط الأدبى ومشاركة بعيدة المدى، أهله لأن يكون (نقيا للأدباء) على رأس عدد كبير من الشباب المثقفين الواعين، الذين أصبحوا - من بعد - كتابا لامعين .. فقد اشترك فى

تأسيس جماعة (أبولو) مع الدكتور أحمد زكى أبى شادى
وأسهم فى تحرير عدد من الصحف الأدبية. ثم رأى أن يقصر
جهده على تنشئة الطفل، حتى أصبح رائدا للأدب القصصى،
وبانيا للأجيال..

تقدير الدولة،

إن (كامل كيلانى) مناضل قهر الصعوبات، ومهد الطريق،
حتى أكد مهمته كرائد لآداب الأطفال، بالرغم من العوائق
والصعاب الطبيعية والمصطنعة.

فلقد عاش فى حاجة إلى التقدير.

إلى تقدير الدولة، وتقدير الأدباء. وفى حاجة إلى الأمان
من مكاييد القاعدين المتخاذلين. وكان طوال حياته يقوم بعملية
تعويض عن هذا التقدير والتشجيع فقد اعتاد أن يذيل كتبه
بعبارات التقدير والثناء المستفيض، تلك التى كان يمنحه إياها،
الأوفياء من الوطنيين ومن النابهين والعظماء فى الدول
الشرقية الشقيقة. ثم أخذ منذ عهد الثورة يعرف الفضل لرجال
الثورة، ويسهم فى تحقيق أهداف الثورة.

أما الدولة، فى عهد الثورة، فقد سارعت عقب وفاته، لتمنح
اسمه شيئا من التخليد. فأطلقت اسمه على مدرسة ابتدائية

ببواب الخلق، بجوار دار الكتب، ورصدت جائزة باسمه لأدب الأطفال، تحت إشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وأطلقت المحافظة اسمه على أحد الشوارع بحى شبرا.

وهذا عمل جميل، وتقدير عظيم.

ولى المزيد من الرجاء، والأمل الوطيد، فى مزيد من العناية والرعاية من المسؤولين، فيما يأتى:

١ - جعل كرسى للأدب العربى وفن القصة فى الجامعات باسمه.

٢ - الاحتفال به فى الإذاعة والتليفزيون، فى مختلف المناسبات الداعية إلى ذلك.

٣ - إخراج سلسلة من مسرحيات الأطفال، مستوحاة من قصصه الشائقة.

٤ - أن يقام له مهرجان أدبى سنوى، كالأدباء الذين يحتفل بهم رسمياً، أمثال (الكواكبي) وغيره.

٥ - إقامة تمثال (للنقيب الراحل) فى أحد الميادين العامة، اعترافاً بفضله، وتخليداً لذكراه (كهانس أندرسون) الدانمركى، ذلك الذى اشتهر فى بلاد العالم، وله فى الدانمرك تماثيل تملأ

الميادين . فلا أقل من جعل تمثال واحد، لأديبنا الراحل، الذي
وهب حياته لخدمة الأطفال والناشئة.

والله نسأل المزيد من التوفيق والسداد لخير النشء واعلاء
الوطن .



أهم المراجع

- ١ - مجلة المقتطف.
- ٢ - محفوظات الأطفال.
- ٣ - مجلة الأخاء.
- ٤ - كتاب فن الكتابة.
- ٥ - نظرات في تاريخ الإسلام.
- ٦ - صور جديدة من الأدب العربي.
- ٧ - رسالة الغفران.
- ٨ - الشعراء المعاصرون.
- ٩ - مصارع الخلفاء.
- ١٠ - ديوان ابن الرومي.
- ١١ - تاريخ الأدب الأندلسي.

- ١٢ - مجلة العصور.
- ١٣ - مجلة الحديث (يحلل).
- ١٤ - المجلة الجديدة (القاهرة).
- ١٥ - مجلة لغة العرب (بغداد).
- ١٦ - مجلة كوكب الشرق.
- ١٧ - الرسالة.
- ١٨ - أضواء على حياة الادباء.
- ١٩ - مجلة الرسالة الجديدة.
- ٢٠ - الزمان.
- ٢١ - مجلة الدنيا (بيروت).
- ٢٢ - مجلة صوت الشرق.
- ٢٣ - مجلة الاثنين.
- ٢٤ - مجلة الاذاعة.
- ٢٥ - مجلة التربية الحديثة.
- ٢٦ - منير الشرق.

٢٧ - رحلات إلى الأقطار الشقيقة.

٢٨ - مختارات كامل كيلاني.

٢٩ - محفوظات كامل كيلاني.



فهرس

٧	تقديم:
١٧	الفصل الأول:..... نشأته وحياته، أساتذته، مواهبه الأدبية، اتجاهه القصصى، منهاجه الأدبى.
٤٧	الفصل الثانى:..... رحلاته إلى العالم العربى، القومية العربية وعواملها القومية العربية ووحدة اللغة، نهضة الشرق.
٥٧	الفصل الثالث:
	أعماله: تحقيق المفاهيم الأدبية، النقد الأدبى، تأديب التاريخ، موازنة أدبية، بحوث لغوية، الفكاكة الجحوية فى الأدب الشعبى، فن الكتابة، حى بن يقظان، شعر الكيلانى العام، شعره القصصى، من السيرة النبوية، من المحفوظات الكيلانية، وطنيته، منزلته بين معاصريه.
١٦٧	الفصل الرابع :
	الرائد يتحدث عن: التربية وضرب الأمثال، القدوة الحسنة، روائع من أحاديث جحا، طريقة احتفاظ «الكيلانى» بالكتب، كيف نحب القراءة إلى الأطفال ؟ مشاكل المجتمع، أسئلة صحفية.
١٩١	الفصل الخامس:
	الكيلانى الطائف، وفاته، تقدير الدولة.
٢٠٣	أهم المراجع:.....

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٨٩ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6498 - 4

لقد كان اقتحام الأستاذ كامل كيلانى رائد أدب الأطفال لهذا الميدان مغامرة، لأنه كان يشق طريقاً جديداً ويمشى على أرضاً صلبة وله عند كل خطوة عقبة.

ولعل حماسه لروائع الأدب العربى هى التى أوحى إليه أن يقتحم ذلك الميدان، فإنه لما قدم إلى القراء أدب المعرى وابن الرومى وابن زيدون نصوصاً ودراسات. هاله أن يجد هذا الأدب مصاغاً إلا عند الخاصة من المتأدين. فهفت نفسه إلى أن يستمتع بالأدب العربى. أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة.

وهذه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق إلا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل العذاب.

فمضى يكتب للأطفال مؤلفاً ومترجماً ومقتبساً ومقوماً ومفصلاً، فلم يقف الكيلانى عند الشرق يحيى بدائع ألف ليلة وليلة وطرائف جحا وأساطير الهند.

ولم يقتصر على الفكر الغربى يدنى منه فلسفة ابن طفيل فى حى ابن يقظان وأدب ابن جبير وإنما تعدى ذلك إلى أساطير العالم فقدم روبسن كروزو وجيلفر ونخبة من روايات شكسبير فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية إلى جانب توسع بثتى المعارف والعلوم مبنياً على ثلاثة أسس: الجانب اللغوى المعنوى الخلقى والجانب الموضوعى.

تصميم الغلاف: صبرى عبد الواحد

35

Bibliotheca Alexandrina



0326817